ظـــل الأفعـــى

إلـــى مَـــىّ .. ابنتـــى ، وجدَّتى .

إلمــــاحٌ

وقعت أحداثُ هذه الرواية ، جميعُها ، فى الليلة التى يُسفر صباحُها عن يوم الثلاثاء الموافق للتاسع من ذى القعدة سنة 1441 هجرية .. الموافق أيضاً للثلاثين من يونيو سنة 2020 ميلادية ، وهى سنة 1736 القبطية المصرية ، وسنة 2012 القبطية الأثيوبية ، وسنة 1399 الشمسية الفارسية، وسنة 5780 بحسب التأريخ التوراتى البادئ من آدم اليهود .. وقد نشرتها ، عملاً بالحديث الشريف : *ألا لا يمنعنَّ رجلاً هيبةُ الناسِ ، أن يقول بحقٍّ إذا عَلِمه* (رواه الإمام أحمد فى المسند والترمذى فى السنن ، عن أبى سعيد الخدرى)

– آخرتها إيه يا عبده ، يا غلبان .

قالها فى نفسه هامساً ، ساعة الغروب ، وهو يصعد الدرجة الثالثة من سُلَّم منـــزله المكوَّن من

طابقين ، فقط . منـــزله المتكوِّم بلا هيبة ، القابع بلا حضور متميِّز فى المكان ، ومن حوله استطالت العمارات ، حتى بدا سطحُ المنـــزل مثل قاعٍ عميقٍ لبئرٍ لم يحفرها أحد ، ومثل فِنَاءٍ خلفىٍّ للشواهق الثلاثة القبيحة التى أحاطت به بإحكامٍ خانق . حتى **النوافذ** التى فتحها سكان الشواهق المحيطة ، لتطل على الفراغ المستقر فوق سقف المنـــزل ، أُغلقت ، بعد الواقعة المشهورة التى رفعت رأس **عبده** بين جيرانه الثقلاء ، الجاثمين على روحه . ما علينا من كل ذلك ، فالمهم الآن هو حسم الأمر المعلَّق منذ فترة ، فقد طال الصبرُ حتى تقطَّعت أوصاله .

عند الدرجة العاشرة من السُّلَّم الرخامىِّ ، المسيَّجة حوافه بقضبان صدئة . رأى شقة الدور الأول ، المظلمة، المغلقة منذ وفاة جدته العجوز ، المحطَّمة . قضت هذه المرأة السنوات العشرة الأخيرة من عمرها ، لاتتحدث إلا عن فضائل زوجها ، وعن إنجازاته التى أهمها تشييد هذا المنـــزل منتصف القرن الماضى، العشرين . كان **المرحوم** قد شيَّده وسط فراغٍ رملىٍّ ، جعل المنـــزل يبدو آنذاك من بعيدٍ ، كصرحٍ أنيق .. ناءٍ .. متوحِّدٍ بطرازه المعمارى الذى لاشخصية له . ومن حوله دار شريطٌ لايزيد عرضه عن مترين ، إلا من ناحية الواجهة الخارجية . يصل العرض هناك إلى ثلاثة أمتار . الشريط المحيط بالمنـــزل ، كان فيما سبق حديقة ، وصارت أرضُه الآن جَرْداءَ قاحلةً كالحقيقة .

تنهَّد **عبده** لحظةَ أن لمح صدأ القطع النحاسية التى كانت قبل عقودٍ من الزمان ، تزيِّن باب الشقة . تذكر يومىْ وفاة جَـــدِّه ، وجدَّته . كلاهما مات فى صحةٍ مقبولةٍ بالنسبة لمن يناهز الثمانين ؟ صحة الجدِّ بالطبع ، كانت أفضل .. أىُّ شئٍ ذلك الذى انطوى بموتهما . سأل نفسه : أتراهما اليوم ينعمان ، معاً، بسكينة الخلود، ويرتعان فى رياض الجنة ؟ جاوب نفسه بما معناه: ربما يرتع الجدُّ، أما الجدَّة فلا يبدو من حياتها المديدة ، الفارغة ، أنها عملت شيئاً تستحق به الخلود والرتع . وما الذى سيخلد منها بالضبط ! وهى التى قضت الأعوام الثلاثين الأخيرة من عمرها ، لاتضحك ولا تبكى . لم يرها طيلة عمره ، خارجةً عن مألوفها ، المحايد، الساكن دوماً. غير أنها انفعلت مرةً، وصرخت فى وجهه بارتجافةٍ شديدةٍ ، يوم همس فى أذنها بأن جده لم يحسن اختيار موقع هذا المنـــزل .

سُلم الدور الثانى ، الأخير ، درجاته أكثر نظافةً ونصوعاً . رخامُ الدرج يزداد وهجُه الأبيض ، كلما ارتقاه .. بدت لعينيه الدرجةُ العالية ، الأخيرة .

لماذا يتعلَّق قلبه بهذه الدرجة الرخامية العريضة ، بالذات ، ويتوجَّس منها ؟ هل لأنها علامة الوصول وقرب الولوج ، أم لأنها علامة الخروج من شقته الرطبة . لم تعد تدخلها الشمس مذ صار

المنـــزل تحت حصار الجدران الخلفية للعمارات الثلاثة المحيطة به .. لا ، بل لأن هذه الدرجة الرخامية ، هى العلامة النهائية الفارقة . نعم ، هى الفارقة بين الموت والحياة ، هى علامة وجودك يا **عبده** يا مطحون ! فكلما تعادل عليها مرورك (الصاعد/ الهابط) فأنت حىٌّ .. ويوماً ما ، ستمرُّ على هذه الدرجة صعوداً أو هبوطاً ، ثم لا تعادل الصعود بهبوط ، أو الهبوط بصعود .. فتكون عندئذ قد مت .

حَدَّث نفسه وهو يلتقط أنفاسه : عندما أموت ، هل ستقترن امرأتى الناعمة برجلٍ آخر ؟ هل سترتخى له ؟ هل سيمرُّ بباطن كَفِّه الخشنة على أنحاء جسدها العارى الممدَّد بجواره ؟ .. إييه يا عبده ، يا مخلول . لماذا ترعدك هذه الخواطر والأفكار .. هه .. مشغولٌ بما سيحدث عندما تموت ! إنك الآن ميتٌ وأنت حىٌّ .. تدور كالترس فى الفراغ ، ليلُك كئيبٌ ونهارُك .. لا أحد يهتم بك ، يا مسكين ، مع أنك لم تقصِّر فى شئ .. طيب، الصبر عموماً طيب ومطلوب . قد تنصلح الأمور الليلة ، وتكون آخرها حلوة .

قبل أن يُولى وجهه نحو باب شقته ، تسمَّرت قدماه على الدرجة الأخيرة ، الفارقة ، وأمال وجهه نحو بئر السلم .. رآه بئراً أخرى ، فارغةً ، كبئرِ الفراغ التى يستقر منـــزله بقاعها ، وبئر الفراغ التى انحفرت بداخله خلال الأسابيع الماضية .. بئرٌ ، ثم بئرٌ ، ثم بئرٌ ! فمتى سيخرج من دوامات الآبار المتداخلة ؟

أطال النظر لأسفل ، وقع نظره على الصندوق الخشبى المخصَّص للبريد . لاحَظَ للمرة الأولى ، أن حجمه كبير بالنسبة لأى صندوق مماثل ، وأن موضعه عجيبٌ (أعلى الدرجة الأولى من السلم) .. مَنْ وضعه فى مكانه هذا، ومَنْ صنعه بهذا الحجم : أبوك ؟ جدك ؟ المقاول الذى بنى المنـــزل ؟ مَنْ ..

أدهشته فكرة أن يكون وجود الصندوق سابقاً على وجود المنـــزل ، وأن المنـــزل بطابقيه بُنى خصيصاً لتحيط حوائطه حائلةُ اللون ، بهذه العلبة الخشبية الخطيرة التى صار ينظر إليها مؤخراً ، بارتياب ، وصار مع بدء ورود الرسائل ، يسميها : صندوق المفرقعات ! .. قبل شهرين ، حين قال لامرأته الاسم الجديد للصندوق . لم تردّ ، ابتسمت بكسل ، ثم نظرت بأسىً إلى بعيد ! ماذا لو نزل الآن فنـــزع الصندوق من مكانه ، ولو شاء حطَّمه ومحا من الوجود أثره ، أو فَتَّته ثم أشعل فيه النار وراح يرقب احتراقه ، أو خلع جوانبه و واجهته فألحق قلبه بالفراغ المحيط به ، أو ..

انتبه إلى أن صوتها **الناعم** ككل ما فيها ، يكاد يأتى خفيضاً من داخل الشقة ، من الجانب الأيمن

من الصالة الرطبة ، من البقعة الوحيدة الخالية من الأثاث ، ومنها يتفرَّع الممرُّ المؤدى للغرف الثلاثة . نبراتُها الناعمة دافئةٌ ، دافقةٌ ، فى تحناها العميق غموضٌ وسموٌ . خلع نعليه أمام باب الشقة ، كما يفعل دوماً ، وكما يحبُّ أن يفعل زوارهما القلائل (معظمهم يتجاهل الأمر ويدخل بحذائه ، خاصةً النساء) أباح لنفسه أن يلصق أذنه بالبـــاب ، حتى يتسمَّع تلك الأغنية التى تردِّدها امرأته . أهى أغنيةٌ، أم نشيدٌ قديم، أم ترنيمةٌ سحرية ، أم همسُ جنونٍ يتسلل إلى عقلها منذ بدء ورود الرسائل الغامضة ؟ .. ما الذى جرى للمرأة التى أحبها ، وكان يظهر إخلاصه لها . من بعيد سمع كلمات متفرِّقة ، من قولها :

محيطًا بلا نهاية ..

.. وحدى ، أنا

سأبقى ، وأصيرُ ..

أفعى ، عصَّيَّةً ..

نقر البابَ بوجل، نقرةً خفيفةً خفية . لم يستعمل مفتاحه ، كيلا يفجؤها أو يُفاجأ هو بوقفتها السامقة التى يمكنه أن يتخيَّل روعتها . توقَّف ترنُّمها إذ أَلْفته لدى الباب . رآها آتيةً من خلف زجاج الباب المغبَّش . ها هى تقترب إلى ناحيته ، كالحلم . صار بمقدوره أن يرى رفرفة خصلات شعرها المتهدِّل بنعومته الآسرة ، علـــى كتفيها العاريين .. كتفيها ، البضَّين ، البيضاوينِ ، المنحدرينِ بانسياب سحرى نحو مركز الإبط الدافئ، الممتدينِ بلون سحاب الصيف إلى حيثُ التقاءِ النهدين . فى نهديها رقةٌ محيرة . لهما ملمس أوراق الورد ، وفيهما خلاصة الرحيق السماوى ، كله .

فتحت الباب وهى تنظر إلى حيث تتوقَّع أن ترى وجهه . غاصت نظرتُها فى قلب عينيه ، ثم نفذت من هناك إلى دماغه فأثلجتها ، ثم انصبت فى نخاعه الشوكى فبعثت رعدةً خفيفةً غمرت ظهره .. مهلاً ! كيف يمكنها بهذه العفوية ، النظر إليه بهذه العلوية ، وهذا التسامى . مع أنها أقصر منه قليلاً ! وكيف يمكن لعينيها أن ترفعه على هذا النحو ، لأعلى .. فتطيِّره .. وتنذره بالسقوط من شاهق .

– إيه اللِّى سمعته منِّك ده ؟ .. وبعدين ، إيه آخرتها معاكى . يا حبيبتى ، كفاية كده . حرام عليكى . أنا بحبك ، ومخلص ..

لم يستطع أن يكمل ، كان ينوى أن يعلو بثورته إلى المنتهى، وبعدها يحطُّ عند حَدِّ التوسُّل ، ثم

يرسو على شطِّ الذكريات الحلوة بينها .. فيستردها فى النهاية ، يردُّها إليه من أفق النأى . لكنه لم يستطع أن يكمل . احتقن صوته وارتطمت كلماته بهذا الجدار المنيع ، الذى سرعان ما ارتفع فى عينيها الواسعتين . ارتفع مثل سورٍ ممتدٍ من بدءِ الخليقة ، إلى آخر زفرةٍ حَرَّى أطلقها وهو فى حضنها المتجرِّد ، إلا من طغيان رغبتها المتأجِّجة الطامحة إلى الإتاحة والمنح . كانت تلك المرة الأخيرة ، قبل سبعة وأربعين يوماً ، قبيل الفجر .

علا الجدارُ المنيعُ بعينيها ، مع احتداد نظرتها . ولما ضمَّت حاجبيها ، ازدادت عيناها غوصاً فيه .. فأسكتته .

- ***أُدخلْ .***

قالتها حازمةً و استدارت مبتعدةً ، فتوغَّلت فى **الممرِّ** المؤدِّى لغرفة نومها ، المؤدِّى لسريرها ، المؤدِّى للجنة التى طُرد منها قبل سبعٍ وأربعين ليلة .. لاحقها بناظريه مشدوهاً . خصرُها بديع ، الثوبُ السماوىُّ الفضفاضُ ، القصير ، يشفُّ اللونَ الكُحلىَّ لملابسها الداخلية . وما ملابسها الداخلية ، إلا قطعةٌ واحدةٌ ذات جناحين محلِّقين بردفيها ، يمسكهما شريطان لامعان يلتصقان ، بإحكام ، بجانبيها .. النسيجُ الكحلىُّ اللامع ، يمسك بالانسياب اللدن الناصع ، حتى لاينفلت ! ليتها تخلع الثوبَ السماوىَّ المشفَّ ، ليرى ما يضطرم تحته من صراعٍ بين اللامع والناصع ، مع حركة ردفيها الرزينة .. ولابد أن النصوع سيغلب فى النهاية، وتنفلت اللدونة العاجية الشهية من حصارها .

غاص فى نفسه ، هيَّجه التوقُ وفَرَكه الشوقُ .. هو محبوسٌ عنها ، بها . وجسمها محبوسٌ عنه بأشرطةٍ داخليةٍ لامعة ، وقطعةٍ من نسيجٍ كحلىٍّ تكاد تشفُّ ما تحتها . لقد شَفَّه الوجدُ .. فإلى متى سيدوم هذا الحبس ؟

قبل أن تتوارى عن عينيه المشدوهتين ، لمح بيدها وريقات لونها لون الكناريا، اعتقد أولاً أنها واحدة من الرسائل (لكنه سوف يعرف ما فيها بعد ساعات) .. فى يدها الأخرى كتابٌ ، مجلدٌ صغير أنيق .

دَسَّت الوريقات فى الكتاب وهى تغيب فى الممر ، غير عابئةٍ به .. اندفع ليدركها ، متجاهلاً الأطباق والأرغفة المصفوفة أرباعُها بإتقانٍ ، فوق المائدة الدائرية المحصورة بأقصى زاوية الجانب الأيمن من الصالة . لم يلتفت ليعرف نوع الطعام المعدُّ له اليوم . لحق بها فى الغرفة . أراد أن يتكلم .. تاهت

منه لفظةُ البدءِ . هدوؤها الوقورُ يقلقه ، مع أنه كان مولعاً بوقارها وهدوئها قبل سنوات . قبل سنوات ، آه ، كانت بيضاءَ ، هادئـــةً ، وقوراً .. يوم رآها للمرة الأولى . يوم خفق قلبه للمرة الأولى . يوم نوى للمرة الأولى ، والأخيرة ، أن يتزوَّج .

كانا قد التقيا فى حديقة المبنى الكبير المسمى **مجمَّع التدريب** الذى أُرسلا إليه ، كُلٌّ من جهته . هو ليدرس لثلاثة أشهـــر ، أصولَ توظيفِ الألوانِ البرَّاقة فى تصميمات أغلفة المنتجات الاستهلاكية صغيرة الحجم ! إذ كان لابد من حصوله على دورة التدريب السمجة ، هذه ، ليمكنه استلام وظيفته الجديدة فى قسم الجرافيك بالشركة الدولية **المجمعة** لإنتاج الوجبات الخفيفة . وكانت هى قد انتظمت فى مركز التدريب ، من قبل مجيئه بسبعة أسابيع ، بالدورة التدريبية عالية المستوى ، لتطوير مهارات الترجمة ومعالجة الألفاظ المشتركة بين عدة لغات، استعداداً لتسلُّم عملها كمترجمة فى **الهيئة الدولية المشتركة** لضبط النصوص المترجمة من كل اللغات إلى الإنجليزية ، وحَثِّ الكُتَّاب على التأليف بها ! وهى الهيئة المعروفة اختصاراً ، بالأحرف العربية الثلاثة ، التى تبدأ بها كلماتها : هدم .

يومها ، هفا إليها حين مرَّت أمامه . صبا نحو جمالها ، حين دنا . انقلبت دولته ، لما تدانت . ذاب ، لما حيَّته بابتسامة من قاب منزين أو أدنى . تدلَّه ، لما أوحت إليه بالاقتراب أكثر . طار فرحاً ، لما بادلته الكلمات والبسمات والإشارات .. كان هدوؤها ووقارها، من النوع **الأبيض** الذى يحبه الرجالُ فى النساء . كان كذلك فى ذاك الزمن ، ثم صار اليوم من النوع **الرمادى** الغامض ، الذى يكرهه الرجال فى النساء ، صار عميقاً .. مقلقاً .

– نواعم ..

ناداها بتمهُّلٍ يناسب مفتتحَ الكلامِ الذى لم يعرف طيلة الأشهر الماضية ، كيف يبوح إليها به . من المستحسن أن يبدأ بمناداتها بهذا الاسم الواصف ، الذى اخترعه لها ليدلِّلها به ظاهريـــاً ، لكنه يستشعرُ بروحه كُلَّ حرف فيه . كان قد همس به فى أذنها اليسرى ، عفوياً ، يوم احتضنها عارية لأول مرة . كانت النشوة تلفُّها ، بحيث زادتها الكلمة خَدَراً على خدر ، فزاد ذوبانها حتى شَعَرَ أنها تسيل بين ذراعيه . نظر ساعتها فى قلب عينيها ، وكرَّر الكلمة .. **نواعم** .. فأسبلت رموشها الكثيفة ، وراحت فيما يشبه الغيبوبة . بعد الإفاقة ، سألته لِمَ ناداها بهذا الاسم القديم ، الذى لم يعد يستعمله اليوم أحدٌ ؟ قال ما معناه : لأن كل ما فيك ناعم ، وأنت مجمع النعومة ، وهذا اسمك عنـــدى ، للأبد !

جرى ذلك أيام زواجهما ، قبل قرابة سبع سنين . والآن ، ها هو واقفٌ قرب بابها ، وقد صارت نعومتها قاسيةً ، قاصيةً ، نائيةً عنه .. موغلةً فى النأى .

– نَعَمْ !

ردَّت بهدوءٍ عميق ، مُؤَثِّر . فردَّته من غيبته اللذيذة فى ماضيهما المشترك . أراح عينيه على جدائل شعرها المتهدِّلة خصلاتُه القوية ، على كتفيها . انزلقت عيناه نحو استدارة كتفها اليمنى . ماذا لو اقترب منها الآن، ولثم نقطةَ انحدارِ شمسِ الكتف البديع المنساب إلى دفء الإبط . يا ألله . من أيَّة مادةٍ سماوية خُلقت هذه المرأة البديعة . هل ستزيحه عنها لو اقترب ؟ أم ستتركه يجتاحها ، مدفوعاً بغيِّه نحو غاياته ؟ .. أين غاياته منها ؟ أين ينتهى به مطافُه السابحُ موجاتها المنسابة ، المتوالية . وإذا تركته يبحر فوق نواعمها ، إلى أين سيصل به المطاف ؟ أين هى من شوقه إليها ، واشتياقه ؟ .. الشوقُ يسكن باللقاء ، واشتياقه يهيج بالالتقاء .

– نَعَمْ !

قالتها هذه المرة بنعومةٍ آسرةٍ لاتخلو من سخريةٍ هامسةٍ واشيةٍ بإدراكها حالة اضطرابه . زاده إدراكُها اضطرابه اضطراباً .. اقترب خطوتين خجولتين ، واستعدَّ للانكماش تحت ظلِّها . جثا أمامها على ركبتيه ، ثم افترش الأرض . أمال رأسه برفق ، نحو الوسادة القطنية التى تتكئ عليها . سَكَنَ ، لِيَسْكنها . انكمش ، ليخَمْشها . هَبَطَ ، لتُعليه .. دَنَا ، لتتدلَّى .

ارتخى جفناه حين مرَّرت أنامل كَفِّها اليسرى ، فوق منابت شعره . أخذه الدوارُ . حار سعيُه فى اختيار مدار : هل يكمل ما بدأه .. ينهزم لها فتنساب هى إليه، كما يتمنى أن تفعل الآن ؟ أم ينتفض ، ويثور عليها ثورةً قد تفضى إلى استسلامها له . مضى وقتٌ طويل منذ آخر استسلامٍ . وقتٌ طويل مضى منذ آخر مرة استلم فيها جسمها الذائب بين ذراعيه لينتشى بخَمْرِهِ إلى حَدِّ المجون ، إلى حَدِّ النهم اللاأخلاقى ، نهم البدائيين المحرومين . بدت له ليلتها ، باستسلامها العارى من كل شئ ، إلا الرغبة فى المنح ، كخبيئةٍ نادرة صادفت نابشَ قبورٍ تعيس .

رفع كفيه ببطء نحو إبطيها ، ثم قارب بينهما ليحفَّ ثدييها . مدَّتْ يدها اليمنى لتوقفه ، فتعلَّق بكفِّها . سحبه إليه بهدوء ناسكٍ مخلصٍ ، يجثو أمام تمثال إلهٍ قديمٍ مندثر . مَرَّ بباطن كَفِّها على وجهه ، اغتسل بنور أناملها ، لامس بشفته السفلى أطراف كفِّها ، فتنهَّدت ، فارتجف حتى كادت دمعةٌ

تفيضُ من عينيه .. ناداها .

– *نَعَمْ !*

لم يستطع المحاوبة . ارتعش قلبه . سكن تماماً ، ثم استجمع وجوده كله ، ليندس بوجهه بين نهديها . التصق بشدة . وَدَّ لو غاص فيها حتى يتلاشى تماماً ، علَّه يولد ثانيةً من رحمها .

مرَّت بكفيها على كتفيه . استسلم لها حين رفعته بأمرٍ خفيٍّ . أترى ، هل مالت هى نحوه حتى صار بحضنها، أم هو الذى ارتقى إليها ؟

صارت تحيط خصره بباطن فخذيها . شفَّ ، وخَفَّ ، وهام . هو جاثٍ على ركبتيه يحيط خصرها بذراعيه ، وهى جالسة على طرف السرير ، وقد انكشف ساقاها وآن سُقياها . ماذا لو انكشفت كلها ، فتأجَّجت وفاضت عينُ مياهها ؟

مَدَّ يده برفق ، فأزاح عن كتفيها الخيطين الممسكين بثوبها السماوىّ الشَّفَّاف . كلما انزاح الثوبُ عن موضع من صدرها ، قبَّله . مسح فيه وجهه . بعد هنيهة ، تركته يهبط بالسحاب السماوىّ الحاجب للشمسين .. لما انكشف صدرُها ، تنهَّد بحُرقــةٍ ، وأراح جبهته عليه .

.. شَعَرَ بالشلاَّل يَسَّاقط ماؤه ، ثم لحظ انتفاضة خلاياها مع حَرِّ أنفاسه ، فازدادت شجاعته . أزاد لهيب قبلاته بحركة طرف لسانه ، ثم هبط بحمى القُبل اللاهبة ، من موضع افتراق الناهدين ، إلى حيث النعومة الخالصة .. هبط بملهباته ، ثم انحدر بها ، فانتهى عند الغاية والمنتهى .

– *عَبُّــــودى .*

قالتها بنعومة خالصة وقد أسبلت رموشها الرشيقة ، وانسدل شعرها . لفَّها شعورٌ واشٍ بأن خلايا جسمها ، جميعها ، تدعوه . راحت إلى أفقٍ بعيدٍ . سرت فيها موجاتُ دفءٍ متتالية غمرتها من أعلاها إلى أعلاها .

نداؤها السحرى دغدغ روحه . ثَقُلت رأسه فأراحها عند ملتقى ساقيها .. مَرَّت على خاطره المرَّة الأولى التى نادته بهذا الاسم . لما سألها حينها ، قالت إن اسمه الجديد هذا، تدليلٌ لكلمة **عبده** التى يناديه الناس بها . ثم أضافت بدلالٍ ويُسر : عبدُ مَنْ ؟ أنت عبدى أنا .. عبدى الصغير .. عبُّودى !

ساعتها ابتسم مستخفاًّ بكلامها ، لم يكن يعرف ما خبَّأه الزمانُ له . بعد أيام سألها عن هذه الكلمة ثانيةً ، لما قالتها ثانيةً . فأجابت الإجابة نفسها ، بالسهولة نفسها . فوجم قليلاً ، ثم عبس وتوجَّس . فى المرة الثالثة تكرَّر الأمر ، فثار . طوَّح ذراعيه . قام ، وجلس ، وقام . أراد أن يظهر لها حنقه من جرأتها عليه . طلب منها بحزمٍ وحسمٍ وعزمٍ ، ألا تعود لمناداته بهذه **الكلمة** أبداً ، ولا تفكِّر فيها بعد ذلك أبداً ، ولا تظن أنه سيقبل ذلك منها ، أبداً ، مهما كان .. لكنها ظلت تناديه **عَبُّودى** كلما قبلته وقبَّلته وكاد يعتليها .

فى الأشهر الأخيرة ، كانت حين يشتعل بهما الشوقُ ويستقر قاربُه فوق مياهها ، تشعر أن الذى بداخلها ، منه ، إنما هو جزءٌ منها . غريبٌ عاد لداره ، أو هو حجرٌ انخلع من بناءٍ ، ثم أعيد لموضعه . أسمعته فى إحدى الليالى بعد هدأة الأمر ، بعدما خمدت كل الثورات التى تأجَّجت بجسميهما ، وهمدت بينهما حُمى التوغُّلات والتشبُّثات . أسمعته ، وكأنها تقبِّله فى أذنه اليسرى التى يدوِّخه همسُها فيها . أسمعته بصوتٍ ذى بَحَّةٍ وفحيحٍ سحرى ، عبارةً غريبة المعنى : ***صَحْ ، ما ذكَّر المذكَّر ، هو الذى أنَّث المؤنَّث*** .

لم يفهم ذلك وقتها . وكان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يصله البيان والتبيان ، فيزيد من قلقه ودهشته واغترابه عنها .

– ***عَبُّـــــودى*** .

قالتها ثانية ، وكأنها تنطق بلغةٍ أخرى لا يفهمها إلا هو . قالتها بحروف غير الحروف . العين قريبة من الهاء ، الباء رقَّت كأنها تنهيدة طفل رضيع ، الواو فاضت وتماوجت كمياه عينٍ دافئة ، الدال خفتت حتى اقتربت صوتياً من التاء ، وما كادت الياء تبين لسمعه ، مع أن السكون كان تاماً حولهما .. قالتها ، وقد أخذها الدَّوَارُ لما مَرَّ لسانُه على أرضها ، وأحسَّت بأصابعه المنغرزة فى ظهرها العارى ، تغوص كجذور أشجار قديمة ، فتداعب أطرافُها بذور جنينٍ كامنٍ فيها منذ ألوف السنين .. ازداد التصاقهما . تزلزل باطنها ، فانكشفت . تكشَّفت ، فأدركت . سَرَت ، فأسرَّت لنفسها :

إن ما يأتينى من خارجٍ ، باعثٌ لما هو كامنٌ أصلاً بداخلى . ففى منطقة عميقة مِنِّى ، تكمن النقطة التى بدأ منها الوجود ، النقطة التى خُلق منها الكون .. ماما ، إننى أشعر الآن برغبةٍ عارمةٍ فى الهبوط لقاع المحيط ، أو التمدُّد عاريةً فوق كوكبٍ مهجور ، أو جذب جبلٍ ملئ بالأشجار نحو جسمى

العارى الممدود فوق السرير ، الممتد من بدء الكون إلى منتهاه .

راحـــت ، كمـــا توقَّع هـــو ، تعزف بأنفاسها المكتومة بباطنهـــا ، مقطوعة التأوُّهات السحرية . المقطوعة التى لا تتكرَّر أبداً نغماتها . راحت تسافر به إلى ما وراء الوراء ، وفَوْق الفوق، وبَعْد البعد . طاح قلبه وانداح ، لما دعته بأمرٍ خفىٍّ أن يتماوجـــا . زحف إلى قلب السرير منتشياً . تقلَّبا ، حتى كاد يغرس بخيمتها الوتد . شعر لحظتها أنه ينمحق ، يتناثر فى الكون كذراتٍ لامتناهية الهيمان .

غابت هى ، تماماً .. غامت رؤياها ، انكشف باطنها لــمَّا شعرتْ بقوة المحبة الطاغية ، تجتاحها . توهَّجتْ فى باطنها نقطةُ البدء ، نقطةُ سِرِّ الوجود ، نقطةُ النار المبدعة .. اجتاحت خلاياها ترنيمةُ الإلهة القديمة :

أنا عشتار

النارُ الملتهبةُ التى استعرت فى الجبال

الاسمُ الرابع من أسمائى الخمسين المقدسة ، هو :

نارُ المعركة المحتدمة .

فاجعلنى ، وحدى ، كخاتمٍ على قلبك .. لأن المحبة قويةٌ كالموت .

شعرتْ بالكون كله يمورُ بباطنها ، فأغمضت عينيها وغابت فى أزمنةٍ سحيقة .. شعرت بأمِّها ، اشتاقت إليها ، جرَفها نحوها التياعٌ لامحدود . نادها نداءً خفياً :

ماما ، أين أنت الآن أيتها الروح السارية فى العوالم القديمـــة ؟ .. ماما .. أخبرينى ، هل الآفاق التى تتقاذفنى الآن ، مع هذا الرجل الذى يكاد ينغرس بأرضى ، هو ما ذكرته فى رسالتك التاسعة ؟ أهذا هو الجنس المقدس الذى كانت كاهنات الرَّبة ، يمارسنه فى المعابد ؟ أترانى فى هذه اللحظة، تلك ***الأنثى فى ذاتها*** *التى حكيتِ لى عنها ، وما هو إلا واحدٌ من الرجال ، لا أكثر ولا أقل . تعرفين يا* ***ماما*** *ولايعرف هو . أننى عرفت زلزلة الأعماق هذه ، مع غيره . عشتها بكل روعتها ، مرات .. مرةً مع* ***الخبير*** *الذى التقيته فبقيت غارقة فى بحر عشقه طيلة الصيف اللاهب ، سنة تخرُّجى وتوهُّجى واندلاعى . كم كان ماهراً فى التقاط شواردى وأناملى وانفراجة شفتى .. ومرةً مع لمسة الشاب الأشقر الذى انطلقت معه ، أيام زرت ألمانيا فى صيف السنة الأخيرة من دراستى الثانوية . كم كان جميلاً هذا الشاب*

. آه يا ماما ، ولكنى عرفتُ الآن فقــط ، أن سرَّ الإبحار فى الأنوثة قد يكون بمجداف أى رجل . وعرفت أن النقطة / السِّرَّ ، إنما هى بداخلى أنا . وعرفت الدوار العلوى ، حين سمعتُ صلصلة الجرس بأعماقى . ماما ، إلى مَنْ أرفع نجواى . ولمن سأهمس بأسرارى ، وهذا الرجل الذى فوقى ، تحتى ، وبيننا هاوية عصورٍ سحيقة .. ماما ، إلى أين تأخذيننى ؟ أتراني سأعود يوماً ، مثلما كنتُ قبل إشراق رسائلك فى كهف حياتى . لا ، لم يعد ذلك بإمكانى . ماما ، تلك ليلتى الأخيرة هنا ، وبعدها سأحلِّق نحوى، نحوك . لن أعود لما كنتُ فيه ، ولن تعاودنى شكوكى ..

– ماما ، خدينى .

انتبه (عبودى) حين همست بالكلمتين المفاجئتين . شعر أنهما انفلتا من شفتيها ، ليدلاَّه على تفاهته ، وعلى غيابه التام عنها !

كان الليلُ قد عمَّ سكونُه . رفع **عبده** رأسه مستغرباً . نظر إليها كطفلٍ حائرٍ ، متسائلاً . فتحت عينيها الواسعتين ، فقفزت نظرته المتسائلة فيهما . تأفَّفت ، أشاحت عنه برأسها المستقرة على خصلات شعرها المفروش فوق الوسادة ، لاحقها بنظراته من جهة اليمين ، إلى الجهة اليسرى حيث أشاحت ثانيةً . حدَّق فيها باستغراب روحٍ هائمةٍ عَلَتْ .. عَلَقَتْ .. ثم انزلقت من فوق سحابة . وَدَّ لو تتلقَّف روحه الحائرة ، بنظرةٍ حالمة تحلِّق به مجدَّداً . لكنها لم تترك له سبيلاً لذلك .

أمام نظرته الطفلية ، المستغربة ، أسبلت جفنيها باستسلام محاربٍ قديمٍ انسحبت روحه ببطء من أطراف أصابعه ، فسقط سيفه من يده .

– تُقصدى إيه بكلامك ، بتكلِّمى مين ؟

لم تكن لديها الرغبة فى الإجابة . لم تكن لديها الرغبة فى أى شئ .. دفعته بباطن كَّفيها ، كى ينــــزل عنها . تـــشبَّث . توسَّل إليها بانعقادِ حاجبيه وتهدُّلِ شفته ، وبكل بؤس حاله رجاها أن تتركه لبضع دقائق ، كى يُنهى ما بدأ .. ازداد دفعها له ، وقد تكثَّرت حول عينيها خطوط الامتعاض ، فتكسَّرت روحه . ازداد تشبُّثه ، اهتزَّ فوقها وقد ارتجف من عمق رغبته الطامحة إلى إنهاء الارتواء .. لقد كاد الأمرُ يتمُّ ، وينــــزاح الــــهَمُّ :

– أرجوكِ يا حبيبتى ، دقيقة واحدة ، وخلاص .

نظرت تجاهه بحدَّة . شعر بنظرتها تخرق وجهه ، تحرقه ، تكاد تنتزع فروة رأسه . فارتمى مستلقياً

بجوارها، كحطام سفينةٍ قذفتها موجةٌ عاتيةٌ ، نحو رمال شاطئ مهجور .

مرَّت عليهما دقائقُ ، أو دهورٌ . صار هواءُ الغرفة ثقيلاً . وصارا مُستلقيين ، ذاهلين بما هما فيه عن عريهما ، ذهولَ البشر الأوائل .. كلاهما يحدِّق فى سماء الغرفة .. كلاهما يرى ما لايراه الآخر .. كلاهما سادرٌ فى غيِّه ، هائمٌ فى غاياته .

أنَّى سيلتقيان ، بعدما خُولف بين طريقيهما ؟

شَقَّ جرسُ التليفون سكونَ البيت . فأفزعتها رَنَّةُ الصوتِ المفاجئ . كانت ساعتها تصغى لترانيم مندثرة تنبعث من ذاكرتها ، فانتزع الجرسُ روحها من هيمانها ، حتى بدت لها الرَّنَّاتُ الحادة ، كصواعق تكاد تشقّ رأسها .

استغربتْ قفزته غير المتوقَّعة ، قفزته النشطة المبتهجة ! حين اندفع من فوره بخفَّةٍ وزَهْللةٍ ، نحو التليفون . بدا لها ساعتها ، وكأنه يؤدى دوراً كان من قبل مرسوماً له .. شدَّت الملاءة لتغطى بطنها العارى ، وصدرها . حدَّقت فيه حين عاد للغرفة مسرعاً ، ليلتقط على عجل ملابسه المتناثرة . أجاب نظرتها المستغربة ، من دون أن يلتفت إليها :

– الباشا فى الطريق !

الباشا .. ما الذى سيأتى بجدِّها الآن ؟ الساعة تقارب الثامنة مساءً . ثم أنها تحدَّثتْ إليه مساءَ أمس ، ولم يذكر شيئاً عن زيارةٍ مرتقبة . زيارة مفاجئة إلى بيتها . ومِن دون إخطار . لماذا ؟

فى العادة ، يذهبان إلى بيت الجد ، معاً ، صباح كل أيام الجمع والأعياد . بلا استثناء ، بلا اعتذارات مقبولة ، بلا تقاعس فى ذهاب **عبده** مع **جدِّو** إلى صلاة الجمعة . الغداء دوماً بعد أداء الصلاة ، ثم الإجابة عن الأسئلة المعتادة بالأجوبة المعتادة، ثم تأكيد **الجدِّ** ضرورة أن يسرعا بإنجاب ولدٍ شقى ما برح **الجدُّ** فى شوقٍ إليه .. ثم الاطمئنان على أمورهما المالية ، ثم الشكوى من الأحوال الحالية وغلاء الأسعار ، ثم تسلُّل الصمت والملل إلى مجلسهم ، ثم ظهور علامات الإرهاق على وجه **الجدِّ** .. ثم الإياب

لبيتهما مع غياب الشمس .

ما الذى يأتى به الآن ؟ زيارته الوحيدة إلى بيتها ، كانت بعد زواجها بشهرين . الزيارة (التاريخية) التى انقلبت معها أحوالٌ كثيرة . لن تنسى أبداً ، ما جرى يومها : وقفتها الفرحة فى الشرفة المطلة على مدخل البيت ، وقد هرول **عبده** لاستقبال **الجد/ الباشا** عند بوابة السور الحديدى المسيِّج واجهةَ المنـــزل .. هرول إليه ، كشعبٍ مقهور يستقبل المخلِّص .

وقف **عبده** ساعتها بجواره ، وقد شَعَّ منه أدبٌ معجون بتذلُّلٍ لم تر مثيلاً له من قبل . حين دخلا من البوابة الخارجية ، الحديدية ، رفع **الجدُّ** وجهه نحو الشرفة ، لتحيتَّها . ابتسم لها وهو ينظر لأعلى حيث تقف ، ثم انقبضت ملامحه فجأة ، وراح يشير بعصاه ، بتأفُّف ، نحو الحوائط الخلفية للشواهق الثلاثة ، الحوائط الحائلة الخانقة . التفت **الجدُّ** لحظتها إلى زوجهـــا ، بغضبٍ ، ولم تسمع من موضعها ما قاله له .

بعدما صعد **الباشا** إلى شقتها ، واستوى بعَظَمته المعتادة على كرسيِّه الوثير . جَرَّتْ مقعداً مربعاً لا مساند له ، وجلست بخفةِ عروس بجوار جَدِّها ، فَرِحَةً بحضوره . سألته بلطفٍ عما أغضبه عند المدخل ، فكان ردُّه أن قام ، معلناً رغبته فى الصعود لسطح المنـــزل . تحرَّك ، فتحرَّكوا خلفه . صعدوا جميعاً، ولحقت بهم مدفوعةً بتطفُّلٍ لاسبيل لمقاومته ، خادمةٌ لعوب كانت وقتها تعمل فى بيتها ، وتملأه مرحاً بغنائها الدائم وسعادتها التى لاحدود لها ، ولا سبب . جَدُّها سيطردها فى اليوم التالى لزيارته ، بالأحرى ، سيأمرها بطردها عبر مكالمة تليفونية . وبالطبع أطاعته ، فودَّعتها بعدما دَسَّت بيدها بعضَ المال وسلسلة عُنقٍ ذهبية ، كان جَدُّها قد أهداها لها قبل سنوات ، ولم تستعملها أبداً .

وقفوا ، ثلاثتهم ، على سطح البيت . فى نقطة الوسط من السطح النظيف الخالى من كل شئ ذى بال ، إلا حبل غسيل .. الخادمةُ التصقت بباب السلم المؤدِّى للسطح ، لتراقب الأمر خلسةً ، عن كثب . أشار **الباشا** إشارته المتأفِّفة، ذاتها، إلى جدران الشواهق الثلاثة . ثم قال بعظمة بعدما تنحنح :

– إيه الشبابيك الكثيرة دى ؟

يومها ، كانت تعرف مسبقاً أن زيارة جَدِّها (الأولى) لن تمر بسلام ، لكنها توقَّعت منه أشياء أُخَر ، أقل تأثيراً . من قبيل إبداء الرأى فى توزيع الأثاث بالمنزل ، أو النصح باستبدال هذه الخادمة ، أو إضافة

لوحة قرآنية يرى هو ضرورة تعليقها على الحائط ، أو التنبيه إلى أهمية غرس أشجار بالحديقة الشريطية الجرداء المحيطة بالبيت .. وكانت سترضى بما سيقول ، وكان زوجها سيرضخ لأى شئ يأمر به **الباشا** بل سيجتهد فى تنفيذه . لكن الذى حدث ، كان أعلى مما توقَّعته . فالجدُّ ينظر لأعلى ، ويعرب عن ضيقه الشديد بالنوافذ التى فتحها سكان العمارات الثلاثة ، من قبل أن تعمر هى البيت بسنوات ! لم تكن تَلْحظ الأمرَ ، ولم يكن زوجها يرى ضرراً من تلك النوافذ .. مع أنه نشأ وتزوَّج وسيموت ، بهذا المنـــزل المتواضع ذى الطابقين والسطح الخالى .

أدار **الجدُّ** رأسه فى الجهات الثلاثة . زَمَّ شفتيه الدقيقتين ، حكَّ ذقنه الحليقة بعناية ، ثم استدار راجعاً نحو باب السطح ، بعدما قال بحزمٍ وغيظٍ مكتوم :

– الشبابيك دى غير قانونية ..لازم نتصرَّفْ !

بعد يومين ، فقط ، أُغلقت النوافذ بطوبٍ أسمنتىٍّ أشدَّ قبحاً من الجدران المحيطة ، فصار المشهد أكثر تشوُّها وإيلاماً . جميع النوافذ أُغلقت، عدا واحدةٍ فى حائط الطابق الثانى عشر من العمارة الوسطى . هى نافذةٌ صغيرةٌ على كل حال . بعد شهور عرفتْ من محصِّل الفواتير الشهرية المجمَّعة ، أن النافذة اليتيمة البا ، مفتوحةٌ بحائط شقةٍ خالية اشتراها منذ سنوات ، زميلٌ قديمٌ لجدها ، اشتراها لحفيدٍ سعيد له ، لن يبلغ سِنَّ الزواج قبل أعوامٍ طوال .

الزيارة الأولى (المتوقَّعة) انقلبت معها الأحوالُ ، فما الذى ستفعله الزيارة الثانية ، المفاجئة ؟ الجيران قبل الزيارة الأولى كانوا محايدين ، وكانوا ربما نظروا إليها بلطفٍ يليق بعروسٍ شابة سكنت منزلاً كان من قبلها شبه مهجور . منـــزلاً يسكنه شاب شبه مجهول ، لم يكن أحدهم يكترث به أصلاً ، إلا فتاةٌ متوسطةُ الجمال فى عينيها غباءٌ ورغبةٌ فى زواج مبكِّر ، كانت تسكن فى شرفة الدور الأول من العمارة القائمة على يمين السور الخارجى للمنـــزل .

بعد الزيارة الأولى صار الجيران يتحاشون النظر إليها ، وصار زوجها مرهوب الجانب ، معروفاً لدى الكافة بوصف يثير تقزُّزها وافتخاره : نسيب الباشا !

– الباشا فى الطريق .. إلبسى بسرعة .

قالها على عجل وهو يمدُّ لها ثوباً يناسب الزيارة المباغتة لها . أما هو ، فلسوف يتضح أنه زار جدها

صباح اليوم، واشتكى له من أحوالها معه . كان قد أطال شكواه ، فلم يهتم الباشا . وأطال فى وصف التحوُّلات التى طرأت عليها فى الشهور الأخيرة، فلم يهتم الباشا . وارتَّج صوته وهو يرجوه بعين دامعة، أن يتدخَّل فى الأمر ويتحدَّث إليها عساها تعود إلى صوابها ، فلم يهتم الباشا . ذكر له أن حفيدته تتلقَّى رسائل من أمها ، فقرر على الفور زيارتهما بعد صلاة المغرب .

سمع **عبده** صوت السيارة تقف قبالة السور الحديدى ، فهبط مسرعاً ليشرُف بالاستقبال . وانكمشت هى فوق أقرب كرسىٍّ إلى باب الشقة . غرقتْ فى نداءٍ داخلى ، ومناجاةٍ خفيَّة، ترجمتها الآتى : *ماما ، جَدِّى فى طريقه ، بعد دقيقة سيجلس أمامى، ستجوس نظراته فى أرجاء روحى ، سيمزِّق بكلماته حبل نخاعى، سيُلقى بجباله فوق رأسى ، سيطوِّحنى فى الفراغ ، سيذرونى فى الهواء* .. ثم أخذها بكاءٌ لم يلبث أن صار ، لحظةَ دخول **الباشا** من باب الشقة ، نشيجاً .

مَدَّ **الجدُّ** يد التحنان لحفيدته . احتضنها ، فازداد بكاؤها ونشيجها .. بعد حينٍ هدأت ، إلا من زفرات متقطعة . مهما كان ، فإن لجدها حضناً دافئاً ، وفى قلبها حبٌّ عميقٌ له . فى حضنه اشتاقت لزمن طفولتها وارتاحت لعبق ملابسه ، ففيها تلك الرائحة الخاصة التى تذكرها دوماً ببيتها الأول ، المريح .

– ***تفضل يا باشا .***

قالها **عبده** بأدبٍ لايخلو من تصاغر ودناءة ، مشيراً بباطن يده اليمنى ، إلى الكرسى الكبير الذى اعتقد أنه أفضل موضع لجلوس **الجد** ثم انطلق من فوره إلى المطبخ لإعداد المشروب الطبيعى ، سابق التجهيز، الذى يعرف أن **الباشا** يحبه . لما عاد إلى الصالة بعد دقائق ، وجد **الجدَّ** قد جلس فوق الأريكة الوثيرة التى بوسط الصالة ، وأجلس حفيدته بجواره .. بداية غير مطمئنة .

غاص **عبده** فى حيرته ، حَدَّثته نفسه المضطربة بالأمر ، فجاوبها ليطمئنها : *سنرى ما سيكون من أمرهما ، لقد أخليت مسؤوليتى ، وأبلغت جَدَّها المسئول عنها ، أطال الله أعوامه التى قاربت الثمانين . وإن لم يحسم هذا الرجل الكبير الأمر ، بعد كل محاولاتى للإصلاح ، فلا ذَنْبَ لى . ليته يحسم الأمر لصالحى، ويردُّها مما صارت فيه . إن مجرد مجيئه اليوم ، يعدُّ إنجازاً .. ودليلاً على أنه يهتم ، ويستجيب بسرعة ، ويقف بسيارته ذات الأرقام المميزة أمام منـــزلى . أنا نسيبه الوحيد ، مقامى كبير عند صاحب*

المقام الكبير . هو قائدٌ بطبعه ، وسيقود معركتى حتى النصر . سينتصر هو ، وأحصل أنا على الغنيمة .

برفق ، وضع **عبده** المشروب قريباً من يدِّ الجدِّ ، ثم ظل واقفاً حتى أشار إليه **الباشا** : اجلسْ . فجلس متقلقلاً . بدا له من المناسب أن يبدأ هو الكلام . برفق . كاد يتحدث ، ليلخِّص ما يجرى فى الشهور الأخيرة ، ويشرح أحواله وقلقه على امرأته ، الحبيبة ، ثم يترك الأمر فى النهاية بيد الرجل الكبير ، ويلتزم بما سيقرِّره الجد ، العظيم ، من أحكامٍ سوف تعيد الأحوال سيرها الأولى .. نوى أن يبدأ كلامه باللفظة المعتادة الجاذبة للانتباه . اللفظة التى بدأ منها يوم تقدَّم للزواج منها ، قبل سبع سنين .. استجمع كل أدبه وشجاعته وخنوعه ، وبدأ :

– فى الحقيقة يا باشا ..

– أُسكتْ انت يا عبده .. *(قالها الجد بحزم)*

– حاضر يا فندم .

هَزَّ **عبده** رأسه صعوداً وهبوطاً . اشتد غوصه فى حيرته. رجَّح أن **الباشا** لم يقصد إهانته . إنما هو فقط متأثرٌ ، بشدة ، مما يجرى . إذن لا داعى للحرج . حتى امرأته لم تلتفت نحوه لما أَسْكته الباشا ، ما زالت تميل برأسها على كتف جَدِّها . لو كان فى الأمر ما يدعو للإحراج ، لوكان فيه ما يعنى الإهانة .. لكانت على الأقل قد رفعت رأسها ، ونظرت بازدراءٍ نحوه . إذن ، لابأس : *أُسكت انت يا عبده ! حاضر يافندم .. حاضر يا باشا .. حاضر يا كبير .. حاضر يا غتيت .. حاضر يا ابن الكلب ، حاضر ، لما نشوف آخرتها معاك ومع الدُّلوعة حفيدتك .. الصبر عموماً حلو ، ومطلوب .*

مَرَّت على الصالة دقيقةٌ ثقيلةٌ ، نفذت إلى مجلسهم من قلب السكون العميق ، بعدها مَدَّ الجدُّ رجليه على استقامتهما ، فاعتدلت هى . رفع **الجد** جبهته ، فتهيَّأوا لسماع القول الفصل :

- ***شوفى يا بنتى ، أنا بلغنى النهاردة كل حاجة بتحصل فى البيت ده .. أنا كنت ملاحظ فى الفترة الأخيرة حاجات مش مفهومة ، بس كنت فاكر إنها مشاكل الحَبَل . وبعدين خاب أملى ، لما عرفت من عبده ..***
- ***عبده ! هوه حضرتك عرفت إيه يا جدو ؟***
- ***اسكتى شوية لحد ما تسمعى آخر كلامى . عبده ، أنا اللى طلبت منه يمر علىَّ النهارده ،***

كنت عايز اطَّمِّن عليكى .. إنما سمعت منه حاجة عجيبة جداً .

التفت **الباشا** بحدَّة نحو حفيدته ، وقد مطَّ صدره فارتفعت ذقنه قليلاً فوق المقبض العاجى لعصاه التى يتكئ عليها، وسيهشُّ بها على نعجته الصغيرة ، وقد يضرب بها إن لزم الأمر . صار الجدُّ أكبر حجماً ، فازداد انكماشها . وجَّه كلامه المباشر إليها :

– إسمعى بأه ، إنتى عارفة إن عندى مشكلة قديمة مع والدتك ، بَسْ انتى عمرك ما سمعتِ منّى كلمة واحدة وحشة، فى حقِّ السِّتْ دى . أنا احترمت كُونها أمك . بس هىَّ فى الحقيقة ، كانت مجرد وعاء، لا أكتر ولا أقل ..

– يا جدّو ..

– إسمعى . لازم تعرفى إن انتى بنت أبوكِى ، بنت أبوكى وجدك . والأب والجد ، شئ واحد . ربنا بيقول من سابع سما ﴿كما أنعمت على أبويك إبراهيم وإسحق﴾ يعنى الجد أب . وأنا أبوكى وجدك اللى بتحملى اسمه .. أنا أبوكى وجدك اللى بيحبك .. ولاَّ عندك أى شك .

– لا يا جدو . وأنا كمان بحب حضرتك جداً ، وماليش غيرك هنا.

– طيب فُوقى ، واعرفى مصلحتك .. وإيه إن شاء الله ، حكاية الجوابات دى .

– أبداً يا جدو . كان عندى شوية أسئلة ، وماما بتجاوبنى عليها .

نزلت كلمة **ماما** على **الجد** كقذيفةٍ مباغتةٍ هَزَّت مخيَّمات تعيسة . شعر لوهلة بجيشٍ من عقارب يدبُّ تحت ملابسه ، وبآلافٍ من أفاعٍ تتوغَّل فى دهاليز روحه .. ارتجَّ ، ثم اجتاحه خمودٌ بدأ بمقدمة رأسه ، ثم غاص الخدَرُ فى بدنه كله . أَحَسَ بأمهـــا ، قريبةً منه . شَعَر بها تلامس شَعْرَ رأسه ، وتتدفق فى حَبْل وريده . أغمض عينيه إذ تذكَّر ، فجأة ، يوم أحاطت به جيوشُ أبناء العَمِّ فى **الدِّفْرسوار** .. كان يومها نقيباً يزهو كتفه بالنجوم الثلاث ، ويزهو عمره بالسنوات الثلاث والثلاثين ، ويزهو جنوده بروحه المتوثِّبة الطامحة للقتال ومواجهة الغزاة . فلما وصلته الأوامر بالسكون التام تحت الحصار .. ارتجَّ ، ثم اجتاحه خمودٌ بدأ بمقدمة رأسه ، ثم غاص الخدَرُ فى بدنه كله .

أحسَّت الحفيدة بوقع الكلمة على جدها، فأشفقتْ عليه ورقَّت لسنواته الثمانين . التاع قلبها ، فغاصت فى نفسها وتدثَّرت بالصمت . إذا كانت **الكلمة** قد أزعجته بظاهر حروفها على هذا النحو ،

فماذا لو عرف أن **ماما** هى أحد الأسماء الخمسين المقدسة ، التى خلعها أهل **سومر** على الأم العظيمة والربة الأولى **ننخرساج** فكانوا يبتهلون إليها ، بها . ثم انتقل الاسم الإلهى إلى البابليين ، ليصل من بعدهم إلى كل لغات البشر ، اسماً لكل أم !

كان عبده قد لاحظ اضطراب الرجل الكبير تحت وطأة الكلمة ، فتعجَّب بأدبٍ وغضَّ بصره . أطرقوا ثلاثتهم لثوانٍ كان الجد يستجمع فيها قواه ، ويستعين بكل موروثه ليحفظ توازنه أمامهما .. رفع رأسه ببطء ، والتفت نحوها قائلاً :

- ***والسِّت دى بتجاوبك على إيه ، إن شاء الله ؟***
- ***أبداً يا جدو ، حاجات كده كنت عاوزه أعرفها .***
- ***تعرفى إيه ، إنتِ مش عارفة حاجة أبداً .. أنا كنت فاكر إن الست دى ماتت وارتحنا منها . واللـــهِ شئ عجيب ، أبوكى يموت فى عِزِّ شبابه ، ودِى تعيش لحدِّ النهارده ! استغفر الله .. استغفر الله .***
- ***يا جدو ، مفيش داعى لكل الكلام ده.***
- ***يعنى إيه مفيش داعى ، إزاى تكلِّمينى كده. بدل الكلام الفاضى ده ، رُوحى خلِّفيلك حِتِّة عَيِّل ، جوزك برضه من حقه يحس إن هُوَّ والد .***
- ***يعنى إيه والد ! الراجل ما يقدرش يولد ياجدو ، وما يصَحِّش نقول عليه والد . هوَّ بس أب .. وبعدين مَفيش داعى ، أصلاً ، نتكلم فى الموضوع ده .***
- ***مفيش داعى ، بتقوليها تانى .. واللّهِ عال . هوه ده الأدب اللى انا ربِّيتك عليه . خلاص ، إنتى وامِّك نويتم على الخراب . أنا عارفها ، وعارف ألاعيبها .***
- ***يا جدو ما يصحِّش كده ، ماما إنسانة محترمة ولها سُمعة دولية .***
- ***سُمعة إيه ، دولية ، على إيه إن شاء الله .. اسمعى ، إنت تقومى دلوقتِ وتحرقى الجوابات دى كلها ، وتبطَّلى خالص تتصلى بيها ، وإلا والله .. والله ، لو خَربتى بيتك بأفكارها السُّودا ، أنا هاخربْ بيتها . وها عرف أوصل لها فى أىِّ مكان ، تكون مستخبَّية فيه .***
- ***ماما مُشْ مستخبَّية يا جدو .***

- ***يعنى إيه يا بنت ؟***

- ***يعنى مُشْ معقول كده يا جدو . كفاية بقى ، كفاية اللى عملته معاها زمان .. وبعدين هِىَّ دلوقتى بتعمل دراسات مشهود لها فى أكبر أكاديميات العالم ، ها توصل لها إزّاى يعنى ؟***

بوغت الجدُّ بهذا الردِّ المفاجئ .. تذكَّر **عبده** فالتفت نحوه ، وكأنه يتأكَّد من وجوده . رآه فى مكانه ، وقد زَرَّ كتفيه قليلاً ، فازدادت هيئته حقارة . لما التفت إليه **الباشا** تشجَّع ، فقال دون أن يتروَّى :

– ***عيب كده يا حبيبتى ، الباشا عاوز مصلحتك .***

التفتتْ نحوه بحدَّةٍ . أهى نظرةٌ تلك التى حدجته بها، أم صفعةٌ انهالت بها على وجهه . شعر **عبده** بالنظرة ، فمدَّ يده بتلقائيةٍ إلى خدِّه الأيمن ، وتحسَّسه بأطراف أصابعه .. أدرك أن عليه التزام الصمت ، وعليها هى وجَدُّها أن يجدا مخرجاً . غاص ثانيةً فى حيرته وأمانيه : يظهر إن الموضوع تعقَّد . لو طلب الباشا أن يأخذها عنده لبضعة أيام ، حتى تهدأ النفوس ، فسوف أرحِّب . سأقضى هذه الأيام مع صديقى الصدوق ، نايل ، سوف نمرح كثيراً ، ونزهلل معاً . وبعد أيام سوف تشتاق لى ، وتعود . ليت الباشا يقف الآن ، ويأمرها بلهجة قاطعة أن تقوم لترتدى شيئاً فوق ما ترتديه ، وتُعدّ شنطتها ، ويرسل سائق سيارته لينـــزل بالشنطة .

تابع عبده حواره الداخلى اللذيذ : هو طبعاً لن يستأذن منِّى . ماشى الحال . المهم إنى سأستريح من قلقى منها ومن اشتهائى لها ، لأيام ، يتولى هو خلالها شطف كل الأفكار الغريبة من رأسها . طبعاً ، وستعود إلى حضنى كما كانت دوماً ، إمرأةً شهيةً تحبُّ الالتصاق الليلى ، وتدَّعى أنها حنونٌ توفِّى زوجها حَقَّه . ستعود حتماً بعد أيام ، لتوفينى حَقى المسلوب ، وزيادة .. هى تحب أردية النوم الخليعة ، سوف أشترى لها أروع وأبدع وأخلع ملابس للسرير . آه يا كلبة ، سوف أعود لما كنت أفعله فيك أيام العسل والمن والسلوى . ولن تتفوَّهى إلا بالآهات ، لن تفكرى فى ترديد عبارات عبيطة من نوع : ما أَنَّثَ المؤنث هو الذى ذكرَّ المذكَّر ! .. ما هذا العبط ؟ تريدين شيئاً ، خذيه ، ضعيه حيث شئت ..أَنَّث المؤنث ! هه ..

- ***يا جدو ..***

- أُسكتى .. إسمعى كلامى ، وإيَّاكِ تقاطعينى تانى .

- يا جدو ، أنا كنت بَوَضَّح لحضرتك .

- توضَّحى لحضرتى . توضَّحى إيه . واحدة زَيَّها تترك عَيَّلة زَيِّك وهِىَّ عندها سبع سنين ، عَيِّلة يتيمة . قال إيه ، علشان تعمل خزعبلات مشهود لها .. مشهود لها .

- يا جدو ، أرجوك .. إنت عارف إنها تركتنى غصب عنها ، لـــمَّا انت أجبرتها على كده . وعارف إنك حاصرتها علشان تطردها من البلد ، وهددتها بتلفيق قضية تقضَّى بسببها عمرها فى السجون ..

- أسكتى يا حيوانة .. إيه الجرأة دى . بتتجرأى علىَّ أنا .. علىَّ أنا .. علشان البنى آدمه دى ، الملعونة .. الكافرة . أستغفر الله . أستغفر الله . صَحّ ، الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم . هى خلاص قدرت تجرى فى دمك . استغفر الله . دى يا حمارة عاوزه تفسدك . صدق الله العظيم ، صدق الله العظيم ﴿إنما جزاء الذين يفسدون فى الأرض ..﴾

- يا جدو ، لو سمحت كفاية كده .

- كفاية كده .. هىَ الحكاية وصلت للدرجة دى ، يبقى أنا لازم اتصرَّف . لازم أقطع رأس الحية . وهاقطع ديلها كمان .

- مُش هاتقدر يا جدو .

- يعنى إيه يا بنت .

- يعنى كفاية كده . وبعدين أنا مُش هاسمح بعد كده لأىّ حَدِّ ، يقول أى حاجة وحشة فى حَقِّ ماما .

قالت ذلك وقد ارتفع صدرها فجأة ، وانتفضت بعينها نظرةُ الحزم ، نظرةُ الحسم ، نظرةُ التهيُّؤ للانقضاض . صارت أكبر حجماً وأكثر بهاءً ، حين رفعت رأسها فاهتزت جدائلُ شعرها لتحيط بوجهها الذى بدا لحظتها ، وكأنه قُدَّ من الرخام الأبيض الصلب . وزادها انعقادُ حاجبيها وزَمُّ شفتيها

، بأساً على بأسٍ . بدت لهما ، كمغارةٍ تعتقل بداخلها عاصفةً على وشك أن تنفلت ، فتجتاح كل شئ أمامها .

وكان **عبده** قد استطال فترة سكوته ، فدعته نفسه ليثبت حضوره بأى شئ يقوله .. ليته ما فعل ! فما كاد يُنهى كلامه ، إلا وصدمه كلامها . قال ، فقالت :

- ***يا حبيبتى مُش كده ، بالراحة شوية .***
- ***إنتَ تُسكت خالص .. خالص .***

نظر **عبده** فى عين الجدِّ ، فلمح هناك تعاطفاً ، فانكمش متدثِّراً بتعاطف الرجل الكبير .. وبعد لحظة سكون من دون سكينة ، تولَّى **الجدُّ** الدفة وقد كساه اليأس :

- ***يا بنتى إهدى شوية ، واهتدى ..***
- ***اهتدى ! أنا خلاص اهتديت يا جدِّو . بَسْ واضح إنى مُش هاهدأ أبداً بعد النهارده .***
- ***ما علينا من الكلام ده ، خلِّينا فى موضوعنا .***
- ***موضوعنا خِلِصْ خلاص ، مافيش فايدة ياجدو من الكلام .. يعنى ما تِتْعِبْشِ نفسك .***

ارتبك الباشا . ساد صمتٌ . هواءُ الصالة صار خانقاً . قامت فجأة ، فاتَّجهت من فورها إلى شرفة غرفة نومها ، رداؤها يرفُّ بقوة مع حركتها الواثقة ، المنفعلة ، الرزينة . نظر **عبده** نحوها مبهوتاً ، علقت عيناه بحركة أطراف شعرها الناعم المرفـــرف ، حتى غابت عنه فى ظلام الممر .. حَدَّث نفسه بعدما توارت ، بما يودُّ أن يعلنه : *آه يا كلبة ، إيه الجرأة دى على الباشا .. على الباشا .. تقاطعيه ، وتحرجيه ، وتتركيه وتمشى . طبعاً ، هِىَّ دى آخرة الدلع . طيب آخرة الحكاية إيه ؟ جدك فظيع .. طبعاً ها يحطِّمك ، ويحطِّمنى معاكى ! طيب وانا مالى . مِنَّك لله ، إنتى وامّك .*

أحسَّ **عبده** أن عالمه كله يرتجُّ ، وينذر بانهيارٍ مروِّع . لايمكن لهذا الإنهيار ، إلا أن يكون مروِّعاً . ماذا تريد هذه البنت، وماذا تريد أمها منها ، ومنىِّ . التفت بكلِّه نحو الجدِّ :

– ***يظهر إن الموضوع كبير يا باشا ..***

– ***اسمع يا عبده ، الموضوع حسَّاس ، ومعقَّد . البنت متِلخبطة .. ولازم برضه نراعى نفسيتها . ويمكن يكون من الحكمة ، معالجة الموضوع ده برفق . حضرة سيدنا النبى ، قال : الرفق ما دخل***

فى شئ إلا زانه ، وما خرج من شئ إلا شانه .

عبده أخذه الدوار ، ثم ارتدَّ لوجوده بعد هنيهةٍ لم يعرف كم امتدت به .. ما الذى يجرى ؟ ها هو يضيع ، وها هو الباشا يكلِّمه الآن ، رجلاً لرجل ، عن الرفق . غاب عن الجلسة وهو يحادث نفسه : *حلو ، حلو جداً .. الباشا بيحترمنى دلوقتى . بس الاحترام ده ، مُش يوصلنا لأى شئ .. طيب وبعدين .. السنيورة ، الدلوعة ، الكلبة ، بنت الشيطانة .. قامت وزبلت جدها من غير أى احترام ، والباشا الكبير قاعد يكلِّمنى ، راجل لراجل ، عن الرفق .. وزانه ، وشانه ! يا فرحتى بالكلام .*

– يا عبده ، أنتَ معايا ؟

– معاك يا باشا .. معاك .

تكلَّما لنصف ساعة ، دون أن يقولا شيئاً مفيداً ، أو يصلا لأى حَلٍّ . العجيب أن **الباشا** ظل ظاهره متماسكاً ، وكان **عبده** من الطيبة والخبث ، بحيث تجاهل ما لمحه من ارتباكه الباطن . لاداعى لإحراج الرجل الكبير ، يكفيه ما فيه .

دار **عبده** ثانيةً ، فى البئر التى بداخله . ناجى نفسه : *طيب وبعدين يا عبده ؟ آخرتها إيه يا مسكين . طبعاً ، لازم تكون مسكين ، زى أبوك وأمك . هاتيجى القوة منين . وآدى الباشا ، عمَّال يقول كلام عبيط : الموضوع حسَّاس . البنت حسَّاسة من صغرها . الموضوع عايز رفق . الأزمات بتحصل فى كل بيت ، وتمرُّ بسلام بإذن الله . الله كفيلٌ بدفع شرِّ الولِّيه أمها . كانت نايمة كالفتنة ، لعنها الله ولعن مَنْ أيقظها . هِىَّ افتكرتْ دلوقتى إن عندها بنت ، بعد كل السنين دى .. كلام ، كلام ، كلام .. يا خيبتك يا عبده .*

انسحب **عبده** إلى أقصى مناطق فراغه ، حادث نفسه بما يستحيل البوح به : *الرجل شاخ ، وأنا ضعت ! كل حاجة ضاعت . كان الحال ماشى ، لولا (عَبُّودى ..) ولولا (خدينى يا ماما) .. إيه يا عبده ، ما تسيبها تقول اللى عاوزه تقوله . مالك أنت ؟ زعلان ليه .. لازم تعمل مشكلة ، ما كانت عريانة تحتك .. الكلبة .*

– يا عبده ..

– معاك يا باشا ..

عقارب الساعة تعدَّت العاشرة . كان متوقعاً أن الجد سينصرف ، وقد كان ما كان متوقعاً .. أما الذى كان ، و لم يتوقَّعه **عبده** فهو ما قررَّه الجدُّ / الباشا عند رحيله ، إذ قال بوضوحٍ واستسلامٍ إنه ، وياللعجب ، قد آن الأوان لأن يقوما بحلٍّ ما يقابلهما من مشاكل ، بأنفسهما . هما الآن أسرة ناضجة، كلاهما فى الثلاثين من العمر . ماعادا صغاراً ، فعليهما تولِّى الأمر .. المساعدة الوحيدة التى يمكن الآن أن يقدِّمها له ، ولها ، هى النصيحة الذهبية التى لايكف عن إسدائها تلميحاً وتصريحاً : *عليكمـــا بالإنجاب !* أضاف ما معناه : *لن يخرجها من حالتها هذه ، إلا الأولاد . ولن تشعر أنت يا عبده ، بأنك رب أسرة ، إلا بالأولاد . الأولاد يا ولدى، فرحة ، زينة الحياة الدنيا . قال تعالى ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ وقال الرسول الكريم : تكاثروا فإنى مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة ..*

– شِدّ حيلك يا عبده .

وقام **الجدُّ** منصرفاً .. وَدَّع **عبده** قبالة الباب ، وأصرَّ على النزول وحده . قَبِلَ **عبده** إصراره بيسر ، ووقف على العتبة الفارقة يرقبه وهو يغوص فى سلم المنـــزل ، وكأنه شبحٌ يتوارى فى قعر بئر لا نهاية لعمقها .

عبده صار وحده .

لفَّ المنـــزل سكونٌ ثقيلٌ ، ضاغطٌ .. عاقداً ذراعيه وكأنه يعتصر صدره ، دار **عبده** فى صالة الشقة مرات . سار ذاهلاً يحدق فى لاشئ . تماوجت برأسه أفكارُ الأسى ، وتردَّدت رنات رثائه لذاته : لاشئ فعلته حتى ينتهى الحال بى إلى هذا ، أدور هنا حول نفسى، وهى فى غرفتها تدور رأسُها فى فلكٍ لا أعرفه . لعلها ملَّت الحياة معى . وليكن ، ولكن هذا لايبرِّر نأيَها عنى . الملل واردٌ بين المتـــزوجين . هى حالةٌ عابرة ، فلا تضخِّم الأمر يا عبده . بعد أيام ستصفو ، وتعود كما أتمنى . هى ابنة أكابر ، وسوف تعود إلى رشدها ، إلى حضنى . لن أنتظر عودتها ، سأشغل نفسى عنها ، سأتشاغل حتى تعود ، فأشغل نفسى بها حتى لا تعود للنأى ثانيةً . النصيحة الذهبية ، الإنجاب ، قد تكون حَلاًّ ناجزاً . سوف تنشغل بحملهـــا ، ثم بولادتها ، ثم بالوليد .. ثم وليد ثانٍ ، وربما ثالث ! لا أريدها أن تتفرَّغ لى ، أريدها أن تَفْرغ مما فى رأسها . ما الذى تقوله لها أمها فى الرسائل ؟ هل تدعوها للسفر خارج البلاد

للحصول على عملٍ أمجد وعيشةٍ أرغد ؟ أنا إذن عقبةٌ فى سبيلها، ولا سبيل لطرح فكرة الإنجاب المعوِّقة لها . مهلاً يا عبده ، الإنجاب من وجهة نظرها ليس معوِّقاً . قبل أسابيع ، حين مَرَّت أمامنا تلك المرأة المتكورة التى تنوء بحملها . هل نسيت ، لقد قالت لك ساعتها : **لاشئ يقدِّس المرأة مثل الإنجاب ..** كلام أهبل ، فالقطة تلد أكثر من المرأة ، ولا تتقدَّس ! لما فاجأتها بهذه الحقيقة ، قالت مستهترة بالمفاجأة : **القطة مقدَّسة منذ فجر التاريخ !** ما علينا ، المهم أنها تنظر للإنجاب بإيجابية . كما أنها تعمل فى وظيفة جيدة ، راتبها يزيد ثلاثة أضعاف عن راتبى ، مع أنها لاتذهب إلى مؤسسة الترجمة إلا سويعات كل أسبوع . هى شبه متفرِّغة ، وشبه مستغنية مالياً ، وشبه ناشز ! لعل الحلَّ أن أحادثها بإخلاص ومودة ، هى تحسن الإصغاء على كل حال ، وإن كانت لا تحسن الرد . تقذفنى بأفكار عجيبة . لا بأس ، سوف أحترم رأيها ، وأظهر احترامى لردودها السخيفة ، وأُطيل فى الحوار معها حتى تفيض بكل ما بداخلها . لكل مشكلة حَلٌّ ، ولو عرفتُ مشكلتها سأعرف الحل ، أو أستشير مَنْ يعرف ، أو أقرِّر البقاء معها أو ترحيلها عنى . إذن ، أنا صاحب القرار فى النهاية، صاحب الحلَّ والعَقْد . نعم ، سوف أحلُّ وأعقد ، لن أرضى بهذا الوضع المهين . أنا لست هيناً، كثيراتٌ غيرها يتمنين شاباً مثلى . عندى عملٌ جيد، ومنزلٌ موروث ، وقدرةٌ جنسية ، ومؤدَّب ! أين صديقى **نايل** الخبير بالنساء ، لابد أن أستشيره .. هل سيعرف من حقيقة أمرها ما لم أعرفه ؟ لا أظن ، فهو خبيرٌ بنوعٍ آخر من النساء . لا ، النساء نوعٌ واحد . كلهن سواء ، لكن الظروف تختلف من واحدة لأخرى . كان يردِّد ذلك دوماً على مسامعى . الجوهر واحد ، والمظاهر مختلفة . صَح . هايل يا نايل . ولكنى سأؤجِّلك الآن يا صديقى ، وأحاول معها محاولة أخيرة . هى آخر المحاولات يا عبده . هيَّا .. تجمَّع ، تشجَّعْ ، ابتسمْ ، انطلقْ إلى غرفتها .. ها هى ما تزال متحفِّزة . اقتربْ ياعبده برفق، ابدأ بأىِّ كلام .

– ***مالك يا حبيبتى ؟***

لم تردّ ، و لم تردَّه عن الجلوس بجوارها على حافة السرير ، غير أنها قامت من فورها نحو الشرفة . لحق بها ، حاذاها ، دون أن يجرؤ فيمَدِّ ذراعه على كتفيها ، كما كان يودُّ . مرَّت عليهما نسمةٌ لطيفةٌ ، حرَّكت أطراف شعرها نحوه . استبشر خيراً .

- ***حبيبتى ، جدِّك مشى متأثر وزعلان منك ، كلِّميه بُكرة الصُّبح .***

- ***ممكن تخلِّيك فى نفسك ، كفاية اللى عملته .***

أفهمها بهدوءٍ أنه لم يقصد من زيارته للباشا صباحَ اليوم ، إلا إخراجها من الحالة التى صارت إليها ، وأنه لم يقصد أى إساءةٍ لها . ومع ذلك ، فإنه يعتذر عما سبَّبه لها من دون قصد ، المهم النية .

- *تعالى نخرج ، نروح نتعشَّى بره .*

- *شكراً .*

- *أنا جعان فعلاً .. نروح المطعم إياه .*

- *أكلك جاهز فى المطبخ .*

أهذه هى المرأة التى كانت تطير فرحاً إذا دعاها للخروج مساءً ، أو لبىَّ هو دعوتها للمطعم الخلوى الفاخر . ما الذى جرى لها ، الخروج هو هو ، والمطعم هو هو ، وأنا أنا .. إذن ، هى التى تغيرَّت . هى حُرَّة . هى الجانية على نفسها . هل سأتوسل إليها لتخرج معى ، لقد فعلتُ كل ما بوسعى . كان **نايل** محقاً حين يردِّد : احتقر المرأة تحترمك ، وارفض المرأة تطلبك ، واصبر على الأرز يستوى ! وأنا صبرت عليها فلم تستو، ولسوف أرفضها إلى أن تطلبنى ، وإن اقتضى الأمر فسوف أحتقرها حتى تحترمنى . لماذا لاتحترمنى هذه المرأة ، هل تظن نفسها فَلْتةً بين النساء . صحيحٌ أنها جميلةٌ ، وشهيةٌ ، وناعمةٌ ، ولعوبٌ عند اللزوم ، وبنت أكابر . لكنها ليست فَلْتة نادرة . هى مثل غيرها ، مثلهن جميعاً .. جميعهن سواء .

– *طيب . هاخرج لوحدى ، مُشْ ها اتأخَّر .*

لم ترد ، و لم يكن أصلاً ينتظر منها رداً . بدَّل ملابسه فى غرفته ، ثم مرق منها بسرعة إلى الممر ، إلى الصالة ، إلى بئر الفراغ . فى طريقه التقط تليفونه الخاص، وتعمَّد أن يُعلى صوت إغلاقه باب الشقة . هبط سلم المنـــزل مسرعاً ، دون أن يحدِّق كعادته فى العتبة الفارقة . فى منتصف السلم ، اتصل بصديقه **نايل** فتأكَّد من أنه فى شقته الكائنة على بُعد دقائق من منـــزله . لم يحرِّك سيارته من موضعها . المكان قريبٌ ، المشى أفضل وأروح للنفس ..

لمحها لحظة خروجه من البوابة الخارجية ، لاتزال واقفةً فى موضعها .. كالتمثال ، كالصنم . إلى أى شئ تنظر ، إنها تحدِّق فى الفراغ الذى يملؤها . هى حُرَّة .

عقارب ساعته تلسع الحادية عشرة . قرَّر أن يعدَّ النساء الجميلات اللواتى سيقابلهن فى طريقه إلى

نايل . هذه واحدة . الثانية . ثالثة بملابس ضيقة . رابعة مع زوجها . خامسة ..

– قابلت فى سِكّتـــى ، عشرين واحدة حلوة .

ضحك **نايل** ضحكته الجوفاء الطفلية المعتادة ، أشار إليه ليدخل وهو يهمس له ، بأنه سيقابل الآن الواحدة بعد العشرين، سيرى بدراً فى سن العشرين ! أغلق الباب ، وعلا صوته وهو يناديها :

– تعالى يا سُكّر ، صاحبى عبده وصل .

بحيويةٍ مرحة ، جلجلت ضحكة **نايل** الجوفاء الطفلية ، حين دخلت عليهما **سُكّر** من غرفة النوم الضيقة ، إلى الصالة الضيقة ، بملابس داخلية ضيقة . سلّمت على **عبده** وشكرته لما قال إن جسمها جميل جداً . جلست بينهما . بدا جسمها أكثر جمالاً حين ارتخت على المقعد ، وأراحت ساقاً عارية ، فوق ساقٍ عارية . أطَلَّ صدرها بقوة أكثر ، وكاد ينفلت فى وجه **عبده** لما مالت بميوعة إلى الأمام ، كى تلتقطً كأساً على الطاولة كان من قبل مصبوباً . بدت أكثر جمالاً ، حين أزاحت عن خَدِّها بظهر أصابعها اليسرى ، جدائل شعرها الفحمىِّ الغجرىِّ وابتسمتْ لما مسَّت أطرافُهُ الجانبَ الأيمن من وجه عبده . سألها عن اسمها ، الحقيقى .

- دلال .

- اسم حلو . بتعرفى نايل من فترة ؟

- آه ، من فترة طويلة جداً ، من سبع ساعات .

صاح نايل بطرب :

– أَيْوَه كده يا حلوة ، يا مَزْهلِلَة .

لما استغربت الكلمة الأخيرة ، تطوَّع **عبده** بالشرح لها ، من واقع خبرته الطويلة بعالم **نايل** ومفرداته : الزهللة كلمة اخترعها **نايل** لتجديد اللغة العربية وإنقاذها من الضياع ، أصلها : زَهْلَلَ يُزَهِلِلُ زَهْلَلَةً ، فهو مُزهلِّل وهى مُزهلِّلة وهم مُزهلِّلون . وتكون حالة الزهللة ، حين تفاجئنا البهجات والفرحات : بهجةُ الطفل بالألعاب النارية فى ليالى الأعياد ، فرحةُ المراهقين بالقبلة الخاطفة الأولى .. طلةُ

العروس فى كامل زينتها ، هيجانُ جلسة السَّمَر عند السُّكْر ، جلجلةُ الرقص المحموم بالرغبـــة ، إقلاعُ الطائرة لرحلةٍ طال الإعداد لها ، الطيرانُ لموعد غرامى طال انتظاره ، زقزقةُ العصافير فى الفجر الصافى .. هذه كلها ، زهللات !

سمعته باهتمامٍ وابتسامٍ ونظرات وحركات شبقة . خلال شرحه المطوَّل ، شعر **عبده** بميلٍ مفاجئ نحوها . لن يمانع **نايل** إذا صرَّح له برغبته فيها ، لن يعزّ عليه صديقه فتاةً كهذه . هو صديق عمره ، سيوافق على منحها له ، من دون تردُّد . وهى أيضاً ، لن تتردَّد فى المنح . لن يضطر لمطاردتها ، لن يجهد روحه . هى جاهزة بالفعل ، ومزهللة بطبعها ، وهو جاهز .. الأمور سهلة ، لماذا نعقِّد الحياة ؟ الحياة فى الأصل بسيطة، كل الرجال وكل النساء يشتهى بعضهم بعضاً ، فلماذا التعقيد ثم البحث عن حلول .. هذه فتاة غير معقَّدة . محلولة ، وحلوة . سمرتها صافية ، وضحكتها رائقة ، وجسمها بديع . سوف تمنحنى ما أريد وما لا أريد ، ستعطينى كل فواكه أرضها .. كيف يمكن لنايل ، أن يعرف هذا العدد الوفير من النساء .

– إزَّاى عِرفتى نايل ، هُوَ شاطر فى صيد النِّسا . صَحّ ؟

أجابته بلا اهتمام كبير ، بما ملخَّصه أن سؤاله دالٌّ على أنه شخصٌ طيبٌ ، لايعرف عن النساء إلا القليل ! إذ لا يوجد رجلٌ واحدٌ قادر على صيد امرأة . شرحت له بألفاظ ركيكة ، أن المرأة تنوى أولاً ، ثم ترسل بعض الإشارات بحسب ما يسمح به الحال والمجال . ثم تبتعد قليلاً وكأنها تهرب ، فيطاردها مَنْ اختارته هى أولاً . ثم تتمنَّع عليه حتى تعطيه الإحساس اللذيذ بأنها طريدةٌ فـــارَّةٌ ، وأنه صيادٌ ماهرٌ . ثم تتلكَّأ ليدركها . ثم ترضى بقَنْصه لها . ثم تمنح ما قررت هى منذ البدء أن تمنحه . ثم تتركه يتلذَّذ بها حيناً ، وينتشى بقدرته على الوصول إليها . فتسعده بذلك إلى وقتٍ معلوم ، تقرِّره هى وفق ما تراه من أهمية إسعاده .. سألها باهتمام :

– طيب ، وهيَّه تِسعدْ إزاى ؟

أفهمته أن الرجل من التفاهة بحيث يسعد فقط بالنهايات، وبنجاحه فى الاقتناص . أما المرأة ، فيسعدها البدء ، والمنتهى ، وما بينهما . هى تسعد باختيارها ، وتسعد بمضىِّ الأمورِ وفق ما تهوى وتقرِّر ، وتسعد بتفاصيل اللعبة ، وتسعد بالتمهيدات ، وتسعد لحظة تحقُّق الأمر .. وتسعد بقدرتها المتجدِّدة على بدء أمرٍ جديد .

- ***طيب ، والحب الرومانسى فين يا دلال ؟***

- ***ده كان زمان .. وجَبر !***

- ***لأ يا دلال ، الحب لازم يبقى موجود ، دايما .***

قال **عبده** عبارته الأخيرة ، بمسكنةٍ تفيضُ ودَاعةً ورِقَّة . فجاوبته **دلال** بنظرةٍ من طرف عينها ، تفيض ميوعةً ودفئاً . ازدادت رغبته فيها ، وتوهَّجت . كاد **عبده** يبوح ، بما أدركته هى من دون بوح . غير أن **نايل** المنتبه دوماً ، انتبه إلى ما هما على وشك الشروع فيه ، وأدرك بفطرته وخبرته أن الوقت غير مناسب ، وأن صديقه غير مهيَّأ للخوض فيما يود الغوص فيه .

تدخَّل **نايل** فى الحوار ، فأفهمه أن **دلال** طالبة جامعية تواظب على الذهاب للنادى الصحى ، وتهتم بلياقة جسمها اللائق أصلاً . تعرَّف إليها ظهر اليوم فى حديقة النادى ، تناولا الغداء معاً . وتحابا بسرعة . هى تحبُّ الحبَّ ، ولا تفوِّت أية فرصة لنيل المحبة . لم يخرجا من غرفة النوم ، منذ ثلاث ساعات . وهو يدعوها لقضاء الليلة عنده، لكنها لن تستطيع هذه المرة . أضاف **نايل** إنها أحلى امرأة عرفها فى حياته (هو يصف كل حريمه بهذا) لكنها لابد أن ترحل الآن .. رَدَّت دلال بدلال :

– ***إيه ده يا نايل ، إنتَ بتطردنى ؟***

قفز نايل إلى جوارها ، ضاحكاً . أمطرها ببضع قبلات ، وهو يضمُّ شفتيها بإصبعيه :

- ***لا يا حبيبتى ، بس عبده عنده موضوع كبير .***

- ***طيب يا عبده ، يا هادم اللذات .. هأ هأ .***

لم تستغرق الفتاة إلا دقائق ، غسلت فيها وجهها فى الحمام، وارتدت ملابسها فى غرفة النوم ، وعادت متهيِّئةً للخروج . سلَّمت على **عبده** وقبَّلته على خديه قُبلتين خاطفتين . فى طريقها للباب ، دس **نايل** فى شنطتها شيئاً ، أظنه ورقة مالية . وبعد قبلة طويلة نسبياً ، رحلت .

– ***هيه يا عبده .. مالك يا صاحبى ؟***

كادت عينا **عبده** تدمعان وهو يقصُّ عليه ما يعانيه ، ويغرق فيه . حكى ، ما كان من أمره مع

امرأته . كيف فرح بها يوم التقاها ، وفرح يوم وافقت على الزواج منه ، وفرح بانتظام الأمر فى سنوات الزواج الأولى (كان نايل يعرف كل ذلك) تابع **عبده** حكايته وشكايته : انقضى زمن الفرح منذ بضعة شهور ، أو بضع سنين ، هو لايستطيع أن يحدِّد بالضبط ، متى انفصلت بروحها عنه . لم تعد تحادثه ، لم تعد تسعد بمجيئه للمنـــزل ، لم تعد تتزيَّن له كما كانت تفعل . دائماً شاردة ، نائية ، منكفةً على النصوص التى تترجمها ، وكأنه غير موجود . حاول أن يردَّها إليه من غيابها عنه ، بكل الطرق . اشترى جهازاً جامعاً جديداً ، فيه كل وسائل الاتصال ، تعمل شاشته باللمس ، إنتاج أصلىّ لشركة محترمة . لم تسعد به . اشترى الأسبوع الماضى مطبخاً جديداً ، ألوانه زاهية ، دفع فيه مبلغاً كبيراً ، وقسَّط الباقى . لم تسعد به بالقدر الكافى . حاول أن يحادثها ، ردَّته .. داعبها ، صَدَّته .. صبر عليها ، نسيته ! الأمر يتعلَّق بالرسائل التى تتلقاها مؤخَّراً ، بكثرة ، من أمها . أخبرته بالأمر حين وصلتها الرسالةُ الأولى ، والثانية ، ورفضتْ أن تريه الرسالتين . قالت إنها أمورٌ خصوصية : لا أعرف يا نايل ماذا يجرى خلف ظهرى . أمها هذه لم أرها من قبل ، ولا أود أن أراها . الباشا يكرهها جداً . ذهبت إليه صباح اليوم وأخبرته اليوم بالأمر ، فجاء إلينا الليلة . ليته ما جاء . الأمور ازداد تعقُّدها بعد زيارته . الرجل شاخ ، فلم يعد يسيطر على حفيدته . ما زلت أحبها ، هى زوجة ممتازة .. محترمة .. بنت أكابر .

– هىَّ بتحشِّش ؟

باغته السؤال . نظر **عبده** لنايل مستغرباً ، ما هذا الذى يسأل عنه ؟ تردَّد قليلاً ، ثم أخبره أنها تحب رائحة الحشيشة . لكنها لا تدمن أية مخدرات ، ولا كحوليات ، ولا أدوية مهدئة ، ولا نباتات مهيِّجة من تلك التى شاعت مؤخراً . مرَّات قليلة دَخَّنا الحشيشة معاً ، على سبيل المرح والترفيه عن النفس . هى لم تطلبها أبداً ، ولكنها لم تمتـــنع عن تدخينها فى المرات التى دعاها لذلك . فى مرة ، أخبرته خلال لحظة صفو ، أنها دَخَّنت الحشيشة أولاً على سبيل التجربة ، مع صديقاتها فى المدرسة الثانوية . ثم مرات قليلة ، خلال دراستها الجامعية ، وبضع مرات معى .. ما الذى تفكر فيه يا نايل ؟

– ولا حاجة ، أنا بس عاوزها تنفك شوية معاك ، وتهبط شوية .

قام **نايل** من فوره إلى غرفة نومه ، وعاد بقطعة هرمية بنية اللون ، فى حجم فنجان صغير .. صاح مبتهجاً :

– آخر مخترعات ألفين وعشرين لإسعاد البنى آدمين وفرفشة النسوان الزعلانين .

الحشيشةُ ملفوفةٌ بإتقان ، فى ورقٍ شفَّافٍ مفضَّضِ الأطراف . فتحها **نايل** بعنايةٍ مرحةٍ ، وهو يمدُّها نحو أنف **عبده** . أخبره أنها من نوع ممتاز ، يستغرق احتراقها نصف ساعة . عليه أن يشعل قمتها المدبَّبة ، ثم يُطفئ اللهب ويترك **بخور الروقان** يملأ فضاء غرفة صغيرة مغلقة . ويدعوها برفق ، لدخول الغرفة بعد دقائق من بدء احتراق بخور الحشيشة . أضاف ما معناه : لا تخش شيئاً ، هو نوعٌ ممتاز ، مجرَّب . المادة المخلوطة بالحشيشة آمنة ، هى مضافة إليها فقط لتحفظ جمرتها متأجِّجةً وبخورها متصاعداً لمدة ثلاثين دقيقة . هناك نوعٌ آخر ، أقوى ، اسمه **بخور الهيمان** ولكن هذا النوع أفضل لكما . البنات يفضِّلنه ! ينتهى أثره فى الدماغ بعد ساعتـــين ، *كل العُقد التى بينكما ستنفك خلال الساعتين .* أضاف : *سوف تدعو لى بعدها . هيا، أدركها قبل أن تنام . اتصل بى صباحاً ، بعد الحادية عشـــرة . سأنتظر أخبارك الحلوة . قم يا بطل ، أنت فارس هذه الليلة . سهرة سعيدة يا صاحبى .*

وطار **عبده** نحوها .. فأين سيحطُّ ؟

وصل إلى باب شقته بعد دقائق معدودات ، فى حدود العشرة . لم يلتفت لشئ فى طريقه ، و لم يسمح لأى أمرٍ بإعاقته . فقط ، حانت منه على سلم المنزل نظرتان خاطفتان ، الأولى لصندوق البريد ، والأخرى للعتبة الفارقة . أدار مفتاحه بحرص ، فاستجاب له الباب . سمع موسيقى آتية من جهة غرفتهـــا ، بابها مفتوحٌ ونورها مضاء . استبشر خيراً : جميل ، مازالتْ صاحية .. إذن ، إلى غرفة الشرق .

تقع الغرفة الأصغر ، المسماة **غرفة الشرق** على يمين الممر المؤدِّى من الصالة الفسيحة لغرفتىْ النوم ، لاتزيد مساحتها عن عشرة أمتار مربعة . نافذتها الوحيدة المغلقة ، تطل على الحائط الإسمنتى للعمارة المجاورة ، بينهما مسافة مترين . وخشيةَ دخول الفئران ، كان من الأسلم أن تظل هذه النافذة دوماً، مغلقة بإحكام .. الغرفة خالية ، إلا من ثلاثِ وسائد متناثرة حول (طبلية) كان جَدُّه قد تأنَّق فى صنعها. لعل النجار الذى نجرها ، هو الذى صنع صندوق البريد الغريب ! على أرضية الغرفة كليمٌ مزركشٌ . وعلى المشجب الخلفىِّ لبابها أثوابٌ شفافةٌ لجارية مملوكية ، أثوابٌ ثلاثة ، كانت امرأته قد اشترتها على سبيل الدلال واللهو ، قُبيل شهر العسل والمن والسلوى ، من مصمم ملابس معروف . وها هى الثياب معلقةٌ منذ سنين خلف الباب ، بلا حراك .

عاشا فى هذه الغرفة أحلى الساعات .. كانت فى زمانهما الأول ، تتلقاه فور عودته من عمله ،

بملابس خليعة وشفاة مكتنـــزة لاتملّ التقبيل ، ثم تقوده لهذه الغرفة الدافئة التى تسميها **غرفة الشرق** وتسمى الطبلية بلفظ غريب عليه : السماط ! .. كانت ، أيام الهنا ، تأخذ بيده من باب الشقة إلى رحم الغرفة ، وتقول العبارة نفسها التى سمعها أيامها عشرات المرات : *تعال يا حبيبى ، السماط ممدود فى غرفة الشرق* ! وريثما يأكل النصف الأول من طعامه ، تخرج هى فترتدى واحداً من الأثواب الثلاثة المعلقّة خلف الباب ، وتدخل متبخترةً بدلالٍ ما بعده دلال ، لتشاركه النصف الآخر من طعامه ثم تضُمُّه لتمنحه بعضاً من فاكهة الجنة .. كان ذلك كله قبل سنوات ، وقد تبدَّد الآن وصار كالحلم !

أغلق وراءه باب **غرفة الشرق** بهدوء . وبهدوء أخرج القطعة الهرمية المشتملة على الحشيشة ، وضعها بعناية فى وسط الطبلية التى فى وسط الغرفة ، أشعل قمتها ثم نفخ فيها بلطفٍ مرتين ، حتى انطفأ لهبها وبقيت جمرتها نقطةً حمراءَ متوهِّجة ، على قمة الهرم البنى اللون . بدأت جمرتُها تصعِّدُ خيطاً أبيضَ مائلاً للزُرقة . تصعُّده رائق الترقِّى . لونه بالغ الصفاء .. بعد ثوانٍ ، صار خيطُ الدخان خيطين يتعانقان بمودة ، على ارتفاع شبرين من قمة الهرم الفوَّاح . خيطا الدخان انفصلا ، ثم امتزجا ثانيةً فى دوائر متماوجة تحت سقف الغرفة . بدأ عبقُ الحشيشة يفوح . أحسَّ **عبده** براحة ، فأسبل جفنيه .. وراودته الأمانى .

بالهدوء ذاته ، أغلق باب **غرفة الشرق** بعدما أضاء مصباحها الوحيد الخافت . تنحنح فى الممرِّ مُخبراً بقدومه ، ثم ترفَّق فى الدخول عليها ، وقد تأنَّق بابتسامة .. الموسيقى التى اعتاد سماعها فى غرفتها خلال الأشهر الأخيرة ، صوتها يعلو . موسيقى مزعجة ، تناسب المعتوهين .. واضحٌ أن امرأته هدأت قليلاً ، وغيَّرت ملابسها . علامة رآها جيدة .

رفعت نظرها إليه بلا اكتراث ، دون أن تحرِّك شيئاً من جسمها الممدود فوق السرير ، تحت غطاء . ومن خلفها ، سطع الضوء الأبيض الموجَّه مباشرة إلى الكتاب الذى بيدها . صدرها أشهى مع انزلاق الضوء الأبيض عليه . شعرها المبلَّل بآثار حمَّامها الطازج ، يرتمى بلا عناية على كتفيها . كيف اجتمع فيها كل هذا الجمال الشهىُّ .. ألا توجد فيها غلطة واحدة ؟ كتفاها الرشيقان ، مكشوفان .. تأمَّلها **عبده** بنظرة رضيعٍ يحنُّ إلى صدر أمه ، وتاهت أفكاره . رفعتْ نظرها ثانيةً إليه ، كأنها تستفسر عن سِرِّ جرأته واقترابه منها ، أكثر من اللازم .

- ***حبيبتى ، إيه الموسيقى والأغانى الجميلة دى ؟***
- ***كارمينا بورانا ، كارل أورف***

- *إيه !*

كادت تبتسم للبلاهة التى اندهش بها . لو اكتملت ابتسامتها ، لصار الطريق أقصر . لم يعبأ هو بإجابتها ، ولا كان أصلاً يعبأ بسؤاله . المهم عنده أن يستمر الحوار ، وبعد الحوار ندخل فى المدار .. جلس على طرف السرير ، بحيث يراها من مكان قريب ، مكان أقرب . دون أن تكترث به ، عادت إلى الكتاب .

– *حبيبتى ، إيه لغة الأغانى الحلوة دى ؟*

– *اللاتينية .*

– *أكيد بتتعلّميها اليومين دُول ، يا عفريته !*

.. ماذ تريد منى الآن ؟ أرجوك ، لو كنتَ تحسُّ ، أن تتركنى قليلاً فى سلام ، وترحل فوراً عن سريرى .. أين كان عقلى .. كيف تزوجتُ هذا الشخص ؟ كيف رضيت بهذا الزواج ، كل هذه السنين . وها هى النتيجة ، هذا التافه يجلس على طرف سريرى ، ويسأل عن كارمينا بورانا ! لو كان سألنى قبل بضع سنين ، لكنت فرحت بسؤاله وتمنّقت فى الإجابة ، لأعرِّفه أنها أغنيات باللاتينية قام **كارل أورف** بتلحينها منذ مائة عام ، بعدما جمعها من أشعار رهبان كانوا يعيشون فى دير ناءٍ بشمال أوروبا ، ثم مسَّهم جنون الشبق والمتعة فانهمكوا فى غواياتهم ، وتركوا الصلوات وألَّفوا هذه الأغنيات المرحة ، باللاتينية التى كان قد بدأ اندثارها . وكان **كارل أورف** من الفجور الإبداعى ، بحيث لفَّ الأغنيات المبتذلة ، بدوَّامات بديعة من الإيقاعات الكنسية المتوالية، بادئاً مقطوعته ومنتهياً منها ، بنداءٍ موسيقىٍّ ملحمىٍّ مزلزل ، موجَّه للربة **فورتونا** إلهة الحظ والمتعة . لتبقى من بعده **كارمينا بورانا** بغلافها الموسيقى المهيب ، وفحوى كلماتها اللاتينية المبتذلة ، التى لايعرف معناها إلا القلة ، أشهر مقطوعة فى المائة عام الأخيرة . أشهر مقطوعة يسمعها الناس ، إطارها مهيب وقلبها عاهر !

- *حبيبتى ، ليه بتحبِّ المزيكا دى ؟*
- *لأنها صورة حياتنا .*
- *آه !*

.. آه منكَ ، متى ستفهم أن الأمور أعمقُ مما تظنُّ وتحبُّ وتتمنى . إنك تتمنى الآن مضاجعتى .

سافل . كدت أمنح نفسى لك قبل ساعتين ، ثم اكتشفت بعدها بدقائق ، أنك وشيت بى لجدى . ماذا كنت تتوقع ؟ لىَّ عنقى ! لن تقدر ، ولن يقدِّر جدِّى أو غيره ، على ذلك . ماعاد عنقى بيد أحدٍ منكم ، وما عاد قلبى يهفو إليك .. كيف احتملت أنفاسك اللافحة لوجهـــى ، طيلة الفترة الماضية ؟ لقد رضيت بك ، فرضيت أنت عن نفسك، تماماً . لم تتقدَّم خطوة خلال سبع سنين . أنت أنت ، مصمم أغلفة البسكويت مغمور الشأن ، مغمور الرأى ، مغمور الوعى .. ارحلْ عن سريرى ، فإننى على وشك الرحيل عن عالمك كله .. حطامك كله .

- ***حبيبتى ، إيه الكتاب اللى معاكِ ده ؟***

- ***ترانيم الربات المندثرة .***

- ***آه ، بالفرنسية !***

.. نعم يا عبقرى ، بالفرنسية ، فما شأنك أنت بهذا . دعنى مع كتابى ، غرفتك على بُعد خطوات .. اذهب ، ستجد فيها جهازك (الجامع) لكل شئ يخصك : برامج الجرافيك البلهـــاء ، رسائل أصدقائك الإلكترونية التى تظن أنك نجحت فى إخفائها عنى ، صور أسرتك فى ملابسهم الريفية الرثة ، ملفك السرى الحافظ لصور العاهرات اللواتى عرفتهن قبلى ، وبعدى .. رصيدك البنكى الحقير الذى لم تخبرنى يوماً به ، بينما لاتكف عن محاولة اكتشاف رصيدى . اذهب إلى جهازك ، واتركنى ، فلستُ فى حاجة إليك الآن ، ولن أكون يوماً .

- ***حبيبتى ، يعنى ، إيه الجديد فى الكتاب ؟***

- ***فيه اللى فيه !***

- ***يعنى إيه ؟***

- ***حاجات كثيرة .***

.. كثيرة جداً ، أكثر مما تتخيَّل ، أكثر مما تودَّ معرفته . فيه، أن الربات اللواتى عبدهن البشر لثلاثين ألف سنة من عمر حضارة الإنسان ، لم يبق من زمانهم البديع إلا بوابة عشتار، وبعض الحفريات ورسوم الكهوف ، ونصوص هذه الصلوات والترانيم التى كانت تتلى فى معابد الربات .. إنانا .. عشتار .. ارتميس .. ايزيس . لو كنتَ تسمع ، لقرأت لك بعضها . ولو كنتَ تعى ، لأخبرتك أن الرجل فى

الزمان القديم ، كان يبتهل بهذه الترانيم إلى **الربة** ويتعبَّد بهذه الصلوات فى محراب الأنوثة المقدس . وكان الذى يريد من الرجال أن يلحق بمعبد الربة ، ليخدمها ، فعليه أن يقدِّم رجولته أضحيةً للربة . إذ كان شرط مَنْ يهب نفسه لمعابد الربات ، أن يربط خصيته بخيطٍ حتى تضمر وتسقط ، ثم يضعها فى محفل مهيب ، على باب أحد أغنياء قريتـــه ، ليتولَّى هذا الغنى المختار إعاشة هذا الراهب المنطلق إلى خدمة الإلهة . وكان بقية الرجال ، لكى يتأهَّلوا للزواج من أىِّ امرأة ، من أىِّ صورة للربة فى الأرض . فعليهم أن يقطعوا قلفتهم بختان القضيب ، ليزيِّنوا عنق تمثال الرَّبـــَّة ، بعِقد الحلقات المقطوعة منهم . ويكونوا من بعد الختان ، المسمى فى بلادنا **طهارة** متطهرين بما يكفى لمضاجعة أىِّ امرأة ، أىِّ صورة إنسانية للإلهة .. كان الرجال يقدمون جزءاً من جسمهم ، ثم صاروا يقدِّمون بعض المال ويسمونه مهراً .. والمهر فى اللغة ، التوقيع ! ثم غلبهم الشُّحُّ ، فجعلوا (مهر) النساء جزءاً مقدَّماً وآخر مؤخَّـــراً ، ثم نسوا أنفسهم واستباحوا الطلاق ، ثم تجرَّأوا على الجمع بين الزوجات وتلَهُّوا بفضِّ البكارات، ثم تبجَّحوا بالادعاء أن المرأة خُلقت من ضلع الرجل الأعوج . قلبوا الأمور ، فانقلبوا قوَّامين على مَنْ قاموا من رحمها المقدس ، فتقلَّبت مع الأيام أحوالُ البشر .. سرنا على غير هدى، فصرنا إلى ما نحن فيه .

– تعالى يا حبيبتى ، عندى ليكى مفاجأة .

وكانت المفاجأة التى لم تخطر لها على بال !

قامت معه ، مستسلمةً ، لما أخذ بيدها برفق . أدهشه أنها لم تمتنـــع ، ولم تتمنَّع عليه وهو آخذٌ بناصيتها. أتراها انجذبت حقاً نحو المفاجأة التى أعدَّها ، أم أنها أرادت أن تمرِّر الساعات الباقية على بدء شروق الشمس ، بسلام ، حتى تأتى لحظة الفراق النهائى الذى انتوته .. لا أحد يعرف بالضبط سِرَّ استسلامها المفاجئ لدعوته ، ولا سِرَّ شرودها حين قامت من سريرها لتتبعـــه ، منقادةً ، إلى غرفة الشرق . بل إنها لم تنتبه ، حتى ، لسقوط الوريقات التى كانت قد دسَّتها بعناية بين طيَّات الكتاب الذى ألقته من يدها بلا اهتمام ، على طرف السرير ، حين قامت معه مستسلمة .. سقطت الوريقاتُ التى فى لون الكناريا ، من حضن الكتاب ، لتفترش الركن المحدود بالزاوية القائمة اليسرى للغرفة ، والزاوية القائمة اليمنى للسرير . الزاوية القائمة العليا للوريقات ، جميعها ، مكتوبٌ عليها بخطِّها الدقيق المنمق ، عبارة : **ترجمة ترانيم مختارة** . عدا وريقة واحدة ، مكتوبٌ على طرفها كلمة واحدة: **سفالة** .

لما افترشت الوريقاتُ الأرض لتشغل مساحة لا تزيد عن نصف متر مربع ، بدت كبقعة ضوءٍ طافيةٍ على أرضية الغرفة الداكنة .. لو اقتربنا من أرضية هذا الكون ، المسمى غرفتها ، فسوف نرى

بوضوحٍ ما كتبته أصابعُها الرقيقة ، بعناية ، فى قلب الوريقات :

أَنَا أُمُّ الأَشْيَاءِ جَمِيعاً

سَيِّدَةُ العَنَاصرِ

بَادِئَةُ العَوَالِمِ

حَاكِمَةُ ما فى السَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقٍ ،

ومَا فى الجحِيمِ مِنْ تَحْتٍ

أَنَا مَرْكَزُ القُوَّةِ الرَّبَانيَّةِ ،

أَنَا الحقِيقَةُ الكَامِنَةُ وَرَاءَ كُلِّ الإِلهاتِ و الآلهةِ ،

عِنْدِى يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ فى شَكْلٍ وَاحدٍ وهَيْئَةٍ وَاحدَةٍ
بِيَدِى أُقدِّرُ نُجُومَ السَّمَاءِ ورِيَاحَ البَحْرِ وصَمْتَ الجحِيم ،
يَعْبُدُنِى النَّاسُ بِطُرُقٍ شَتَّى ، وتَحْتَ أَسْمَاءٍ شَتَّى ،

لَكِنَّ اسْمِىَ الحقِيقِىَّ هُوَ إِيزِيس .

بِهِ ارْفَعُوا إِلَّىَ أَدْعِيَتكم وصَلَوَاتِكُمْ .

(ترنيمة مصرية ، الدولة القديمة)

أُصَلِّى إليك

يَا سَيَّدَةَ السَّيِّدَاتِ وَربَّة الرَّبَّاتِ

يَاعَشْتَارُ .. مَلِكَةُ كُلِّ النَّاسِ ، الهادِيَةُ إلى السُّبُلِ المسْتَقِيمَةِ
الرحمةَ يا سيدةَ السماءِ والأرض ،

يا راعيةَ المتعبين ،

الرحمةَ يا سيدةَ الحربِ المسيطرةَ على كُلِّ المعاركِ
أيتها الساطعة
يا لبؤةَ إِجيجى ، ياَ قاهرةَ الآلهةِ

أيتها الممجَّدةُ ، يا ذاتَ الثباتِ والعزمِ

أيتها البطلةُ عَشْتَارُ

المتألِّــقةُ ، مُضيئةُ السَّمَاءِ والأَرضِ

عظيمةُ القوةِ ، جامعةُ الحشودِ

إلهةُ الرِّجَالِ وربَّةُ النِّسَاءِ التى لايعرف خُطَطَها أَحَدٌ
عَبْدُكِ المعذَّبُ المكْرُوبُ يَسْتَصْرِخُكِ ،
فانظرى إلَّى يا سَيدِّتى ، وتقبَّلى صَلَوَاتى

عِدِينى بالمغْفَرةِ ، فإنَّ مَوْجَ الطُّوفانِ يَتَقَاذَفُنى

.. فُكىِّ وثَاقى وأَطْلِقِى سَرَاحِى ،

وقُودِى خُطَاىَ إلى الطَّريقِ المسْتقيمِ

عَسَى أَنْ تَتَوَهَّجَ مِبْخَرَتى الدَّخْناءُ الدَّكْنَاءُ

ويُوقَدَ مِشْعِلِىَ المنْطَفِئُ

يا عَشْتَارُ الممجَّدةُ ، البَاسِلَةُ ، التى لانظير لها .

(ترنيمة سومرية ، القرن 23 ق. م)

أنا الطبيعةُ ، أنا الأمُّ الكونيةُ ،

سيِّدةُ كُلِّ العناصر.. عُبِدْتُ بطرقٍ شتى ، وأُطْلِقتْ عليَّ

أسماءٌ كثيرة ،

لأنَّ جميعَ أهلِ الأرضي يقدِّسوننى.

الفريجيون سَمَّوْني بيسينونتيكا ، أمَّ الألِهَةِ .

والأثينيون سَمَّوْنى أرتميس .

وعند سكانِ قبرصَ ، أنا أفروديت .

وفى كريتَ ، أنا آناوكينيا

آخرونَ عرفوني باسمِ : بروسيبيرين ، وباسمِ : بيلونا ، وباسمِ : هيكاتى ، وباسمِ : رامومبيا.

المصريونَ المتفوِّقونَ فى العلمِ القديمِ ، وفى عِبادتى بمَا يليقُ بأُلوهِيَّتى ، سَمَّوْنى باسْمِىَ الحقيقىِّ :

إيزيس .

(من كتاب: الحمار الذهبى ،

القـــــرن الثانـى الميلادى)

عَشْتَارُ، أيتها السيدةُ المانحِةُ للحَياةِ

أَشْكُو لَكِ ما يؤرِّقنى

فاستمعى إلى كلماتىَ المنهكةِ

واغفري لجسدىَ المتألِّمِ

فإنَّ قَلْبَ عَبدِكِ يؤلِمـُهُ انصرافُكِ عن شَكْواه

أَنا أشورُناصربال ، عَبْدُكِ المملوءُ آلاماً

المتواضعُ لكِ

عَابِدُ بهاءِ أُلوهِيَّتكِ .

(مـن ترنيمـة للمـــــلك

(أشورناصربال، 1049 ق.م)

ثَدْياكِ ، يا سَيِّدتى، حقلٌ مِعْطَاء

ثَدْياكِ ، إنانَّا ، حَقْلٌ فَيَّاضٌ بالزَّرْعِ

وبالحبِّ، وبالماء الدَّافق

فاسْكُبي لِعَبْدِكِ المطيعِ

ليشْرَبَ .

(أنشودة سومرية ، القرن 19 ق.م)

إنانَّا المقدَّسَةُ شَاءتْ أن تَنْزِلَ

من السَّمَاءِ إلى الأَرْضِ

لتفرِّقَ بين الأشْرَارِ والأَخْيَارِ

وتَفْصِلَ بين الحقِّ والبَاطلِ

مِنْ أَجْلِ ذلكَ، قَرَّرَتِ

النُّــزولَ إلى الأرضِ .

(من ملحمة إنانَّا وشوكاليتودا)

إلى رَبَّةِ الأشياءِ كُلِّها

سَيِّدَةِ السماءِ والأرضِ ، عَشْتَارَ

المالكةِ

التى سَارَتْ فى العَمَاءِ المخيفِ ،

فَأَوْجَدَتِ الأشياءَ بالمحبـــَّةِ .

(ترنيمة بابلية ، القرن 17ق.م)

فى البَدءِ كانتْ إيزيسُ

أَقْدَمُ القُدَمَاءِ ،

الرَّبَـــةُ التى نَشَأَ كُلُّ شئٍ مِنْها

السَّيِّدَةُ الكُبرى ، العَظِيمةُ أَعْمَالُها كُلُّها

السَّاحِرَةُ ،

الحكيمةُ ،

الأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ الآلهةِ .

(ترنيمة مصرية ، الدولة الوسطى)

اسْمَعِى يا أَرْجَاءَ الدنيا ، مَدِيحَ الرَّبَّةِ إنانَّا

سَبِّحى المَقَدَّسَةَ

سَبِّحى الممجَّدةَ ،

وتقرَّبى من السَّيِّدَةِ العُظْمَى .

(ترنيمة بابلية ، القرن 15 ق.م)

إنانَّــا

يا سَيِّدَةَ النَّوامَيسِ الرَّبَّانية ،

أَيتها الأَنْوَارُ السَّاطِعَةُ ،

يا واهِبَةَ الحياة ، يا مُكْتَسيَّةً بالإجْلالِ

يا ذاتَ الحلِيِّ العظيمةِ

يا صَاحَبَةَ المقامِ الأوَّلِ

أَنْتِ إنانَّا السَّمَاءِ ، وإنانَّا الأرضِ

يا مُمْطِرَةَ البلادَ المعتدية باللَّهَبِ

وصَانعةَ القَرَارَاتِ بالأَمْرِ المقدَّسِ

يا مدمِّرَةَ البلادِ الأجنبيةِ بأجْنِحَةِ العاصِفَةِ

يا محبوبَةَ إِنْليل .

فى خِضَمِّ المعركةِ ، يتحطَّمُ الكُلُّ أَمَامَكِ

ويَفْنَى كُلُّ شئ بِقُوَّتِك

تهجمينَ كالعاصِفَةِ ، وتُدَوِّينَ كالرعْدِ

قَدَمَاكِ لاتَتْعَبَانِ ، وقلبُكِ الحقودُ لايَهْدَأ

الجَبالُ التى لم تبجِّلْكِ ، صَارَتْ تُرابا ( )

واشتعلَتْ بها النيرانُ .

يا بَقَرَةَ الوَحْشِ ، الهائجةَ

ويا أيتها العَارِفةُ الحكيمةُ

المالكةُ الرَّحِيمةُ

وَاهِبَةُ الحيَاةِ ، صَاحِبَةُ القَلْبِ النَّيِّرِ

.. أنا إنخيدوانا

أَتْلُو الصَّلَواتِ ،   وأقدِّمُ دُمُوعى شَرَاباً عَذْباً

لإنانَّا المقدَّسَةِ .

(ترتيلــــــة لإنخيدوانا ابنة الملك
سرجون الأكدى ، 2271 ق.م)

إنما جِئْتُ ، لأُدَمِّرَ أَعْمَالَ الأُنثى !

(كليمـــان السكنـــدرى

أحـــــد آباء الكنيســة

توفى سنة 216 ميلاديـــة)

بخورةُ الروقان احترق ثُلُثاها ، وثلثا الغرفة تماوجت فيه خيوطُ الدُّخَّان ، بعدما تجمَّعتْ فى المركز كعمود من سحاب ، وتداخلتْ مع الضوء الهابط من اللمبة الوحيدة ، التى بدا نورها وكأنه يريد الارتماء على الأرض ، غير أن عمود السحاب يجتهد ليرفعه لأعلى . عند زوايا الغرفة ، امتدت خيوطُ

الدخان الدقيقة . التفَّتْ ببطء ، وتداخلت أطرافها . فبدت الغرفة ، كمشهد أسطورى فى حلم بديع . بديعةٌ تلك الرائحة التى فاحـــت ، لما انفتح الباب .. هو يبتسم مرحِّباً ، وقد انتابته حالةٌ من زَهْلَلَةٍ لم تعرف سِرَّها . وهى هائمة فى ملكوتها الباطن ، ونجواها :

ماذا يريد منى هذا العبده ؟ لا بأس لو قضيتُ معه بقية الليلة هنا . هى على أى حال ، ليلتى الأخيرة معه ، فلا بأس لو استرخيتُ قليلاً . سأتجاهله تماماً، وأجلسُ على وسادتى وكأنها عرش محمول على قاعدة : الليلة خمرٌ ، وغداً أمر !

الليلة خمرٌ وغداً أمر . أين قرأت هذه العبارة ، أين ؟ .. أهى عبارة **أمرئ القيس** التى قالها ليلة بلغه خبر مقتل أبيه ، أم هى عبارة **المهلهل بن ربيعة** المعروف بالزير سالم ، التى قالها ليلة مقتل أخيه **كليب** ثم شرب حتى الثمالة لآخر مرة ، وقضى بقية عمره يثأر لأخيه . عجيب هذا الرجل ! .. المهلهل ، ماما هلهلته فى كتابها : أساطير الذكور المتأخرة . هو عندهم ثائرٌ بطل ، وهو عندها رجلٌ غبىٌّ تافه ! أنموذجٌ ذكورىٌّ نمطى ، أضاع بإمعانه فى القتل والإدعاء الأجوف بعدم الرضا الثأرىِّ ، مجداً وليداً كانت قبيلته **تغلب** وقبيلة أعدائه وأبناء عمومته **بكر** سيفخران به ، ويقودان العرب .. كليب بن وائل رسم الطريق ، والمهلهل أضاعه . كليب خاض حرباً لأن رجلاً لطم أخته ، فانتصر . والمهلهل ظل يثأر لكليب ثلاثة وعشرين عاماً ، لم ينتصر فيها و لم يظفر بقاتل أخيه ! .. ومع ذلك ، صار عند الناس بطلا .

لولا الإسلام لأكلت تغلب الناس . قولٌ مأثورٌ ردَّده العرب قديماً ، لكنه لم يصب كبد الحقيقة .. الأصح أن يُقال : لولا غباء **المهلهل** لظهرت **تغلب** وقادت كل العرب ! مالى الآن وهذا التاريخ البعيد .. هل لعبت الحشيشة برأسى منذ اللحظة الأولى ، أم ترانى كنت مستعدة لها من قبل دخولى الغرفة .

الليلة خمر ، وغداً أمر . غداً سأبدأ إبحارى الطويل ، هجرتى إلى ذاتى ، لحاقى بماما .. ماما الوالدة ، صورة **ماما** الأولى الخالدة .

ما هذه النظرة التى أراها بعينيك الضيقتين يا عبده، نظرةُ فأر محصور .. لا ، بل نظرةُ قطةٍ ضالةٍ ، لحقت بمائدةٍ فقيرة على طرف رصيفٍ ، لتتسوَّل لقيمةً قد يُوقعها أحد الآكلين ، أو يرق قلب أحدهم لها ، فيلقى نحوها شيئاً .. لن ألقى لك بشئ الليلة . يكفيك أن تتأمَّلنى هكذا ، من بعيد . سأدع شهوتك تشويك ، ولن ألهب جسدى بحمحمة البغل الساكن فيك ، المتهيِّئ الآن للاندفاع . اندفع إلى داخلك ، فقد اندفعت فىَّ كثيراً، وما عادت أرضى البيضاء تحتمل اتساخ حوافرك . ابحثْ من غدك عن

أرضٍ جديدة لتحرثها ببؤسك الأزلى ، ثم ألقِ بجوفها بذورك المعطوبة ، حتى إذا ما دار الزمان دورته ، أخرجت لك أرضك المحروثة المحروقة ، ذريةً فاشلة مثلك .

– إيه رأيك يا حبيبتى .

رأيى أن نبراتك مزعجة ، وإن كانت فكرة الحشيشة هذه مبهجة .. كيف هداك تفكيرك إليها ؟ كيف عرفت أن ذهنى مكدودٌ وفكرى مزدحم ، ولا شئ سيهدِّئ من روعى ومن عواصفى ، مثل هذه البخورة . لقد فعلت أخيراً ، يا عبد ، يا عُبيد ، شيئاً مقبولاً . سأقبل الليلة منك ، أيها الضئيل ، كل ما تحرقه من بخورٍ على مذبحى المقدس . أتراكَ أدركتَ أخيراً ، ما فىَّ من قداسة الأنوثة ، فجئت إلى حضرتى لتحرق بخورك ؟ لا أظنُّ ، وعيُك أدنى من هذا الإدراك .. كل ما تريده الآن ، هو مضاجعتى مضاجعة البهائم . أصبر للغد ، ثم عليك بالبحث عن بهيمةٍ تنكحها وتنكحك ، بهيمةٍ تليق بك وتليق بها. ولعلها ستمتعك أكثر منى ، وقد تمتعها أيضاً ، فيحصل المطلوب . ولكن لا تطلبنى أنا . لا تتعب نفسك معى . فديدان الأرض ، ليس من شأنها أن تغوص فى قلب السحاب . أنا سحابةُ صيف تزيِّن السماء ، أنا بهاءُ النوع الإنسانى .. أنا لو تعرف: صورة إيزيس ، وتجلِّى إنانَّا ، وفيض عشتار ، وملمح أرتميس .. أنا ماما . لو أننى الآن تجرَّدت من ملابسى ، فسوفَ ترى بهائى الأصلىَّ متماوجاً على صفحة جسمى ، مشعِّاً بأرجاء روحى ، مشعشعاً بجواهر قلبى . لكنك لن تفهم ! فقط ، سترى فىَّ ما تودُّ أن تراه ، وترى فيما تراه ما تودُّ أن تحصِّله ، أن تحرثه ، أن تمخر فيه بقاربك وتغوص بمجدافك .

– حبيبتى ، ليه نظرتك بعيدة عنى كده ؟

كل ما بى ، صار بعيداً عنك . ماذا تريد من نظراتى .. إننى أنظرْ الآن إلىَّ ، فلا أراك منعكساً على مرآتى ، لا أراك منعكساً إلا على صفحة رغبتك المحمومة ، وخُطتك الدائمة لجعلى وعاءً .. أوهامك تدعوك لأن تجعل من الواعية ، وعاءً ؟ عجيب . ولِمَ لاتكون أنت وعائى ، لِمَ لَمْ تحتوينى طيلة هذه السنين ، بقلبك وروحك .. هل لك قلبٌ وروح ، أصلاً . أم أنك فقط ، وعاءٌ لنملٍ يدب فى باطنك ، ويتجمَّع بخصيتيك ، آملاً أن يجد دغلاً ينقذف بداخله . ابحث عن دغلٍ تبثُّ فيه نمـــلك ، ودَعْ جنتى طاهرة .. الرحم جنة ، وجحيم . وكلاهما لايسع سعى النمل . آه ، إن نملة واحدة غير مرئية ، تلج إلى الجنة / الجحيم ، يمكن أن تكون إنساناً .. إنساناً أصلياً ، أى امرأة قادرة بطبيعتها على إبقاء النوع الإنسانى ، بنملةٍ واحدة غير مرئية ! لو كُنت فيما أفكر فيه ، الآن ..

– قرَّبى منىِّ ، يا حبيبتى .

ابتعد عنى ، وإلا صارت ليلتك ليلاء . مالك تتزحَّف نحوى منذ دخلنا الغرفة ، أادخلتنى لتميلنى .. هه ! إليك عنى ، دعنى أتسلَّق خيوط الدخان ، فقد أوشكت البخورةُ أن يكتمل احتراقُها . قاعدة الهرم الفوَّاح ، كادت تنمحق تحت صفحة جمرتها الرقيقة. يصَّاعد من باطنها ، ثلاثةُ خيوطٍ دخانية أشد قوة وتأثيراً . دعنى أراقبُ انتهاءها، اختفاءها ، توغُّل جمرتَها فيها ، وتبدُّدها فىَّ .

ابتعد ، واتركنى قليلاً ، وحدى .. وحدى سأتصاعد مع خيوط الدخان الأخيرة ، أتسامىَ ، أعلو من أرض الغرفة إلى سمائها ، من جوارك إلى جوهرى، من تمدُّدى إلى مددى الآتى من وحى الأنثى المطمور عبر العصور . لو لم تكن الآن معى فى الغرفة ، لتعريتُ ، وافترشتُ الأرض ، وانفتحت . عسى أسدُ الغابة الهصور ، يأتى ، فيعتلينى . آه يا عشتار ، كيف شعرتِ بالأسد حين اعتلاكِ ؟ وكيف اكتفيتِ بأسدٍ واحدٍ ؟ وهل يهزُّ أعماقَ الأنوثة الكامنة وراء عربى إذا ما اكتمل ، كُلُّ أسود الأرض ؟ لا ، ولا كل الذكور التى تسعى فوق الأرض .. ولا الأرض بمن عليها. رحمى يتسع لولوج الكون كله . باطنى تصطخب فيه أرواح كُلِّ الكائنات . لقد امتلأتُ ، وبوابتى خليقةٌ بانبثاق العالم منها، بإبراز كُلِّ الأحياء للوجود . آه ، أيتها الربة **تَعَامة** لقد عرفتُ الآن شعورك بهراوة **مردوخ** العتية ، وهى تشقُّك نصفين ، فتكون منهما الأرضُ والسماء .

- ***تعالى يا حبيبتى .***

- ***يا أخى أُسكتْ شويه .***

اسكت للأبد ، ما عدتُ قادرةً على احتمال سخافة لغتك . اللغة أصلاً ، لغو . لو تترك الغرفة الآن لى ، لو تعرف كم أود الانفراد ، والتفرُّد ، والتجرُّد .. لكنك لن تفعل، فأنت أنت . وأنا لن ألتفت إليك ، حتى تعرف مَنْ أنا . وأنت لن تعرف أبداً . فاسكت للأبد ، ودعنى . ففى سمائى نجومٌ سأطَّوَفُ بها ، ومجراتٌ سأمرُّ عليها ، وثقوبٌ سوداء سأبتلعها .. وفى أرضى كنوزٌ من جواهر سأصقلها ، وأنهار سأغسلها وتغسلنى . ترحالى طويلُ ، سفرى عميقُ ، تردّدى بين أرضى وسماواتى دائمٌ .. آه ، كم أنا مجهدةٌ .

عاقبةُ الإجهادِ وخيمةٌ !

هايل يا نايل ، أفكارك عبقرية .. البخورة بركاتها كثيرة ، لقد هدأت الدلوعة ، وبعد قليل ستنفك. كما قلت لى بالضبط . والظاهر أنها ستنفكُّ جداً ، ستتفكَّك ، وسأفعل فيها ما يحلو لى . كل ما يحلو لى . يا سلام .. أراها جميلة وهى هادئة ، وأراها أجمل وهى مستسلمة لى ، وأراها أجمل الجميلات حين تهبُّ بصدرها عاصفة الشهوة . العاصفة الموثبة لنهديها ، النافحة لحلمتيها . منذ زمن طويل ، لم أر حلمتيها تحتشدان .. إيه يا عبده ، دعك من الحلمات الآن ، سيأتى وقتهما بعد قليل . الآن ركِّز على عينيها ، فمنهما ستأتى إشارة البدء ، كما كانت تأتى فى الماضى البعيد ، البعيد .. ستأتى الإشارة قريباً . نظرةٌ بميلٍ ، مع انفراجة شفتين ، مع انسدال الشعر على الكتفين . تلك هى العلامات المنتظرة ، الوشيكة ، المبشِّرة بليلةٍ لن تُنسى . سأطيلُ الأمرَ حتى الصباح . سأشبع من كل زاوية فى جسمها ، سأفجِّر كل خلاياها بالرغبة، حتى إذا ما أوشكت على الإغماء من فرط الظمأ ، سأروِّيها . لن يندفع نهرى فى أرضها ، إلا لو توسلت لى وتأوَّهت من فرط التحرُّق وتوهُّج الجمرات .. نعم ، سأكرِّر معها ما حدث فى تلك الليلة المتوحشة التى قضيناها منفردين فى بيت جدها ، الليلة الوحيدة التى أمضيناها هناك ، يوم ذهب إلى قريته ليتلقى العزاء فى شقيقه الوحيد .. لماذا أصرَّت يومها ، بعدما أغلقت الباب بإحكام وأسدلت كل الستائر ، أن نتعرَّى بالكامل ، وأن نروح ونجئ متجرِّدين ، كالخلقة الأولى . ثم ابتدرتنى بالأمر ، ساعة منتصف الليل . ما سِرُّ هذه البهجة التى ملأتها عقب رحيل جدها ، فظلت تتوهَّج ، حتى جاءت دعوتها اللافحة مع دقات الثانية عشرة . لم تصدر منها ليلتها، الإشارات المعتادة . لا نظرة مائلة مرفرفة بأهدابها السود الظليلة ، ولا انفراجةَ شفتيها المحلاة بطيف ابتسامةٍ شبقة ، ولا إطلاق شلالات الشَّعر الناعم على الكتفين . بل كانت وثبةً واحدة ، وبإحكام ، أحاطت بى على كرسى جدِّها الذى كانت قد أجلستنى عليه قبلها بساعة ، ظللتُ خلالها أرقبها وهى توزِّع عريها وابتهاجها، على كل ركن فى البيت الكبير . ما هذه البنت ؟ وأىُّ أفكار تلك التى تدور برأسها ؟ لماذا أصرَّت ليلتها أن نلتقى فوق سرير جدِّها ، من منتصف الليل حتى الفجر .. كانت جبارة ، حتى أنهكها جبروتها .. قبيل الفجر كانت قد بلغت الذرى ، وصرتُ المتحكم الوحيد ، كنت سيدها . جعلتها تعرف قدرى . كانت تموء كالقطة البرية ، تتماوج تحتى كفهدٍ متسلسل بقيود غير محكمة . لما توسَّلت ، روَّيتها . لما ارتجفت ، دككت كُلَّ قُراها . توَّهتُها . مددتُ لها الخيط حتى دارت وداخت وأوشكت على الأغماء ، ثم جذبتها فصرختْ من هول قوتى . جعلتها ليلتها تعرف معنى الرجولة ، وأهميتها للمرأة .. مع أننى لم أكن ليلتها مستريحاً للوضع كله ، وكان علينا أن نصحو مبكرين متهيئين لأىِّ مُعَزِّين غير متوقعين . لكنها احتالت للأمر ، واجتذبتنى بفنونٍ شتى ، جديدةٍ علىَّ . أين تعلَّمتْ هذه البنت ، هذه الميوعة ؟ لا لم تتعلَّم شيئاً ، هى تتصرَّف بطبيعتها ، التى هى طبيعة كل امرأة . لكنها

أحلى من الأخريات ، وأشهى . وأنا قادر على استخراج كل كنوز أرضها، وقطف كل فواكه جَنَّاها، وتفجير كل البراكين الكامنة فيها . هييه يا عبده ، لا تبالغ ! ولا تنس نفسك ، فأنت تتمنَّى لمسةً واحدةً منها منذ أسابيع ، و لم تنل شيئاً .. ولكن لاتغتم ، دَعْ عنك الهم. زَهْلِلْ . سوف تنالها بعد قليل . فالبخورة حلَّت بركاها ، والساعة اقتربت .. اخرج من الذكريات ، وركِّز على عينيها لتصطاد أول إشارة .

لماذا تنظرين بعيداً ، انظرى نحوى يا ملعونة .. الحشيشة احترقت عن آخرها ، بخورها يملأ الغرفة ويملأ رأسى ورأسك ، فتعالى لنغيب معاً عن الوجود . نحن الغائبين أصلاً . غائبٌ أنا عنك ، وأنت غائبة عن كل شئ. الحشيشة لا تغيِّبنا . هى تنبِّهنا لغيابنا الدائم . هه ، سأقول لنايل غداً إن حشيشته منبِّهة ! سيضحك . هو دائم الضحك ، دائم الغَيْبَبَـــةِ ، لايشغل باله بأى شئ ، سوى اختراع ألفاظ جديدة ، ينقذ بها لغتنا من الضياع . هو مخترع لفظ **الغَيْبَبَة** للدلالة على اكتمال الغياب ، بالغياب عن الغياب ! لكنه على كل حال ، شخصٌ طيب . خَسَرَ نصف ميراثه فى التجارة ، وجَمَّدَ النصف الآخر فى بنك أجنبى يصرف له الفوائد كل أسبوعين . ثم استراح على العرش ، إلى الأبد . لماذا لم يُخلق أبى غنياً كأبيه ، أبوه ترك له مالاً ومكتباً للتوكيلات الملاحية وشقَّتين . أبى ترك لى قرضاً لم يسدِّد نصفه ، وأماً مريضة لحقت به بعد شهور ، وشقيقتين من ربات البيوت الفقيرة . لولا جدى لأمى ومنزله الحقير هذا ، لكنت الآن أجوس الطرقات كالكلاب الضالة ، وما كنتُ قد تزوَّجت حتى اليوم . هه ، وهل أنا اليوم متزوج ، حقاً ! ها هى الزوجة المحروسة من عين الحاسدين واللائمين والطامعين ، جالسةٌ بقربى تنظر إلى بعيـــد ، أو تغلق عينيها فلا أرى الإشارة . وأنا عاكفٌ على انتظارى ، بجوارها ، أتقلَّى بالزيت المغلى المندفق بعروقى . حتى الكلمات ، حَبَسَتْها الملعونة بداخلى . حتى بخور الهيمان الذى يطيح برأسى ، لم يجد معها نفعاً للآن . حتى **دلال** اللعوب التى تحبُّ الحبَّ ، انشغلتُ بما أنا فيه ، عنها . و لم أمدّ لها خيطاً ، أو أمهِّد للأمر بموعدٍ قابل للتعديل . غداً ، سأتَّصل بنايل ، واطلب منه هاتف **دلال** وأسأله عن مفاتيح جسمها ، والهدايا التى تحبها .. ياسلام عليك يا عبده، تفكِّر الآن فيما سوف تفعله غداً .. الآن ! ياأخى فكِّرْ فيما أنت فيه .. ركِّزْ .

...

إيه يا عبده ، ما آخرُ هذا السكون ؟ افعل شيئاً . تنحنحْ، اخلعْ ملابسك ، قبِّلْ قدميها ، دلِّكْ كتفيها .. البخورة تبدَّدت خيوطها ، ابتلعناها وابتلعتنا . و لم يحدث أى شئ ، حتى الآن .. مهلاً ، ها

هى تُرخى جفنيها وتميل برأسها ناحية الزاوية . قد تكون هذه إشارة جديدة . إذن ، حان الحين . أقبلْ عليها . لا ، انتظر . أيها الأهوج ، مهلاً ، ستتوالى الإشارات وستتولى الأمر ، بعد لحيظات . لا تتعجلها . هى تبدو متعبة ، هائمة فى ملكوت الغيبية . هيا يا حلوة ، غَيِّبِــى أكثر فأكثر .. وافترشى الأرض ، لأفترشك . مهِّدى أرضك ، لأحرثك . استسلمى ، لأُسْلمك . ترنَّحى ، لأُوقعك . تفتَّحى ، لأَدْهسك .. إيبيه يا عبده ، أفقْ . انتبه . ميلُها نحو الركن يزداد ، فاستعد ، تهَيَّأ . افعل شيئاً . اخلعْ ملابسك بهدوء ، بهدوء .. جميل . هى هائمةٌ تماماً ، لم تفتح عينيها . ابقى يا حلوة مغمضة ، لايهم ، سألتهمك حتى لو كنتِ نائمة ، لو كنتِ غائبة عن الوعى ، لو كنتِ ميتة .

– ارتاحى يا حبيبتى ، ارتاحى .

هى غائبة تماماً ، لم تنتبه لعريك . جيد . أكملْ ، أَمِلْ رأسها فوق الوسادة ، أزحْ برفق ثوبها الجامع المانع . تمهلْ ، لاتأت بحركة مفاجئة ، فهى مستسلمةٌ تماماً .. أنفاسُها هادئة ، فأكملْ ما بدأت . الكتفان يشرقان أكثر ، مع انسدال أطراف الثوب . من حسن الحظ ، أن ثوبها واسع . قبِّل الكتفين ، لا ، اصبرْ ، فمن يصبر يناله نصيب الأسد . كن الآن ثعلباً ، لتصير أسداً بعد قليل .

– ارتاحى .

تمدَّدى أكثر يا حلوة ، واتركى الثوب ينسلُّ مع حركة يدى الماهرة ، لاتنـــزعجى . ابقى مغمضة . كم أتمنى أن أفكَّ شعرك الملتف حول دماغك كالأفعى ، ثم أرخيه على الوسادة ، فيحيط بوجهك ويزيدك إثارةً . ولكن لا داعى للعجلة ، العجلة من الشيطان الغلبان الخسران . أما الآن ، فالأهم هو سحبُ الثوب برفق إلى ناحيتى ، حتى ينخلع تماماً .

يا ألطاف الله .. انكشفتْ أخيراً ، إلا من بقية يسيرة . أهى نائمةٌ فعلاً ، أم تُراها تدَّعى الدوار لتترك لى حرية نزع القشرة . لجسمها لونُ الموزة الدافئة ، ونعومتها . خلاياها نائمة، لا يهم ، بعد قليل ستنفضُ ، وأَنْفضُها .. وأَنْفُضُها ، فتنتفضُ .. أكملْ يا عبده ، اسحب هذا الثوب المانع ، الجامع لسلة الفواكه . لاتتركه يعلق بقدميها ، اسحبه للنهاية .

– اتمددى ، يا حبيبتى .

.. عريُها اكتمل ، وهدؤها كاملٌ كشهوتك. هى الآن أحلى وأجلى . استدارة فخذيها متقنة .

قوامها أشهى وهى مرتخية . هى بالقطع ملتذَّة بما يجرى ، وإن كانت لاتفصح . ستفصح حالاً ، ستبوح ، ستموء ، ستطلبنى ، ستعطيني الإذن بالغوص فى اللين . ما كل هذا الجمال ؟ هى بالقطع أجمل من **دلال** وأبهى وأشهى . أنا بالفعل أحبها ، حبى ممتدٌّ من أطراف أصا بع رجلها ، إلى ركبتيها خاصةً حين ترتفعان ، إلى انضمامة فخديها وانسراحة بطنها المنبسطة تحت اعتلاءة النهدين، المنسرحين ثانيةً فى ميلهم نحو منبت العنق الرشيق مثل كأس الشمبانيا . آه ، لم يبق إلا فكُّ شعرها . بهذا تكتمل لوحة البهاء .

- ***حبيبتى ، فُكِّى شعرك .***

- ***يوووه .. إبعدْ .. عنى .***

واقتربت نهايةُ الرواية .

تبدَّد دخانُ الحشيشة من غرفة الشرق ، فاتَّسعت الرؤية . بقيت هى مغمضة ، مستلقية على ظهرها فى سكينة . لم يعرف **عبده** إن كانت نائمة ، أم مرتخية فحسب ، أم هى داعيةٌ له بأمرٍ خفىٍّ . راح لدقائق ، يتأمل تفاصيل الجمال المسجى أمامه . السكونُ تامٌّ ، واشتياقُه لها . جفل ، حين مطَّت ذراعها اليسرى . أحاطت بها رأسها ، فبدا نهدها أشهى وأغوى . رفعت ركبتها اليسرى لأعلى ، ببطء ، ثم أمالتها مع جسمها كله ، جهة الجدار .

راح **عبده** يلتهم بعينيه ، من مكمنه ، ظهرها العارى . جمد ، ثم تسارعت أنفاسه وتدلَّت شفته السفلى وتدلَّهت كل حواسه . راح يتوغَّل بناظريه فى ثناياها ، ويهتز من فرط التحرُّق .. هيا للعمل ، يا عبده ، يا فارس الليلة !

بحركة مفاجئة ، ركع **عبده** على ركبتيه ، فكاد يلامس بهما أطراف قدميها . وبسرعة ، مَدَّ يده اليمنى إلى ركبتها اليسرى النائمة على الركبة اليمنى . رفعها بقوة ، وبقوة أكثر ضغط عليها نحو الجهة المقابلة ، بعدما أمسك بيده اليسرى ركبتها اليمنى ، ليمنعها من الارتفاع . صار يُطبق بإحكام ، بكلتا يديه ، على كلتا ركبتيها .. بهذه الحركة المباغتة، انفتحت أمامه كل بواطنها : باطن فخذيها ، باطن مبتدأ بطنها ، باطن انضمامة ثدييها ، باطن استكانة إبطيها .. كلها انفتحت أمامه .

انتفضت هى من هول المفاجأة . كادت ترفع نصفها الأعلى، وقد عقدت حاجبيها وهى تنظر بكل حدة ، تجاه عينيه الضيقتين . أعادها لاستلقائها الأول ، بدفعة شديدة من باطن كَفَّيه ، على طرفىْ

كتفيها ، ثم عاد للإمساك بركبتيها . حبا حبوتين ، وارتمى، فصار مطبقاً بكلّه على كلّها . لم تنجح نظرتها القاسية فى رَدِّه ، فأطلقت أظافرها لتخمش وجهه المرتجف ، لكنه سرعان ما تلقَّف أصابعها بباطن كفَّيه . ضغط بقوة ، فصارت مصلوبةً على الأرض من تحته . كادت تصرخ ، فأغلق فمها بشفتيه . وقبل أن تفكِّر فى عَضِّ وجهه ، استجمع كل بؤسه ، وعنفه ، واشتياقه .. ودَبَّ فيها. يائسةً تزحَّفتْ للخلف، فعاقها الجدار . ومنتشياً تزحَّف للأمام ، فلم يعقه شئ .

أطلقتْ صرخةً مكتومة ، فأزاد اندفاعه بداخلها . رفع وجهه وصدره ، وأبقى كفيه مطبقين على منبت ذراعيها . بعد بضعةٍ ارتجافات وانتفاضات ، لم تعد قادرة على دفعه ، وصار هو قادراً على كل شئ . ظلَّ يتدافع داخلها بكل قواه ، حتى انهارت كل قواها . أرخت ذراعيها بطولهما وأخمدت حركة جسمها ، وهى تُولى وجهها نحو الحائط مستسلمة لجيوش النمل التى توشك أن تنقذف بباطن شجرتها. واصل تدافعه فيها ، وقد لفَّه انتشاءٌ لامحدود ، بهذا التحكم الفريد . لم يأبه لجفاف حقولها . لم يلحظ أن كل حصونها انهدمت ، وأنه دَكَّ كل أسوارها . لم يكن منشغلاً بها ، وإنما به .. به غضبٌ موروث ، وقد آن وقت الانتصار والظفر .

أفرغ فى كهفها كل دفعات نمله اللزج . كان يلهث ، وهو يهتز فوقها بقوةٍ لاقبل لها بها .. لاقبل لأىِّ امرأة بها . فهو الأعلى، والأقوى ، والأقدر على التوغُّل . ومع العلو والقوة والقدرة، لاشئ يهم ! انتظم لهاثه وتتابعت اندفاعاته ، لحظةً .. أو دهراً . وبعد زفرةٍ مريرة ، ارتمى عنها مستلقياً مثلها على ظهره . ليس مثلها تماماً .. فهو مستلقٌ ، وهى ملقاةٌ .. هو مستريحٌ ، وهى منفيةٌ .. هو نسرٌ يرفُّ ، وهى أفعى تلتفُّ .

بعد انقضاء هنيهةٍ من ذهول ، انتفضت واقفةً وهى تنظر بفزعٍ إلى أسفل بطنها ، وإليه . ركلت وجهه بأصابع قدمها اليسرى ، وهى تهرب عاريةً نحو الباب . فابتسم . قام وراءها متثاقلاً ، فأغلق باب **غرفة الشرق** من الداخل ، وعاد مترنِّحاً ليرتمى على الوسائد التى شهدت قبل قليل ، نواله مأربه .. شهدت انتصاره وبلوغه مطلبه ، بعد صبرٍ طويل .

استعدَّ **عبده** لإغفاءةٍ طويلة ، يغطُّ فيها وهو متغطٍّ بعريه، دون خشية الإزعاج . دون خوفٍ من عودتها ، من رَدَّة فعلها ، مما يمكن أن تفكِّر فيه ، أن تفعله .. ولكن ، ما الذى يمكن أن تفعله ؟ عليها أن تعرف الآن قَدْرها ، وتستسلم راضيةً لقَدَرها . ابتسم لما طافت برأسه الفكرة : لقد دخلتْ الغرفة وهى ناشز ، فخرجتْ وهى امرأة كاملة وزوجة حقيقية .. فعليها أن تشكرنـــى ، وإلا فقد عرفتُ الآن

الطريق إلى بواطنها . ولن أكفَّ ، ولن أكتفِ . كل ليلةٍ أشاء، فإما أن تمنحنى ما أريد ، أو تحتمل مما عرفته الليلة المزيد والمزيد. ويوماً ما ، سترضخ لى تماماً، وتكون زوجة مثالية تلتذُّ بالرضوخ .

ارتخت أجفانُه فداعبها نومٌ لذيذٌ ، وأفكارٌ ألذُّ : آه ، كان يجب أن أفعل ذلك قبل الليلة ، وما كان هناك داعٍ للمعاناة الطويلة . هه ، ماذا يهمُّنى منها .. ماذا يهمُّنى من أى شخص . جَدُّها ، ما الذى يمكن أن تقوله له ؟ هل ستقول إن زوجى أخذ حقَّه **الحلال** منى .. زوجى الطيب ، غافلنى وعرَّانى وضاجعنى .. قضينـــا ليلة ندخن الحشيشة ، ونلهو ، فاجتاحنى .. أردتُ أن أهجره فى المضاجع ، فدَكَّ منى أحصن المواضع .. ضاجعنى دون أن أشتهيه، ونال كل ما كان يبتغيه .. كان مشدوداً ومشدوهاً وشديداً وقوياً ، فوقى .. على ظهرى ألقانى ، ثم شَقَّنى وهَدَّ أركانى . هــــه ، لن تستطيع أن تقول له أىَّ شئ ! ثم إن جدها انتهى . شاخ ، وشَخْشَخ .. شخشخ ! إييه يا نايل ، سوف أدهشك باختراعى هذه الكلمة، وأشاركك بها مهمتك القومية لإحياء اللغة العربية وإنقاذها من الضياع . انظر قوة الكلمة **شخشخ** وقوة احتياجنا لها . أصلها عندى : شخشخ يشخشخ شخشخةً ، يعنى لحقته أعراض الشيخوخة والخرف والضعف ، حتى لو كان شاباً . فيقال للمذكر مُشخشخٌ وللمؤنث مشخشخةٌ ، إذا لم يقدر الواحد منهما على النكاح ، أو التحكُّم فيمن حوله ، أو إلزام الناس برأيه . ومن هذا الأصل ، اشتُقت كلمة (الشخشيخة) وهى اللعبة اللدنة العود ، التى تتأرجح كرتها المليئة بالحصى ، فى أيادى الأطفال أيام الأعياد . فكُلٌّ متأرجحٍ مترنِّحٍ ، مُتشَخْشخٌ . وكل متأرجحةٍ مترنحةٍ ، متشخشخةٌ . وبالطبع ، ففى معظم الأوقات ، كلنا فى أغلب أحوالنا : متأرجحون ، مترنحون ، متشخشخون . الآن ياقوم، نطمئن على دِقَّةِ لغتنا وقدرتها على التعبير عنا . نطمئن تماماً ، وننام .. نام يا عبده، فقد أبليت الليلة بلاءً حسناً ، ببركة دعاء والديك .

...

بعد سويعة ، قفز عبده مرتجفاً ، لما فاجأه صوتُ المؤذِّن لصلاة الفجر . ظنَّ أولاً أنه الحلم المفزع ، يتحقَّق . الحلمُ الغبىُّ الذى يأتيه دوماً ، آخر الليل : هى تدخل عليه ، عارية ، وبيدها مشرطٌ رهيف ، فتميل بهدوء نحوه ، وهو عاجز عن الحركة تمامـــاً ، فتفصل بالمشرط خصيته ، وتدُّسها فى فمه .

نبَّهه الأذانُ الجهير ، المفاجئ ، إلى عريه وتكوُّمه فوق الوسائد المبعثرة بزاوية الغرفة .. أين هى ؟ لايكاد يسمع صوتاً . لعلها نامت ، لترتاح .

التقط بيده اليمنى ملابسه ، الداخلية فقط ، وفتح الباب بهدوء مَنْ أفزعه الصوتُ المفاجئ ، والكوابيسُ الخانقة ، والانتباهُ للعرى .. راح يتلصَّص ، عارياً ، عبر الصالة و الممر . وقد زَرَّ كتفيه فصار كضبعٍ نحيلٍ ، يجوس طرقات قريةٍ بائسةٍ ، أهلها نيام .

أغلب قُرانا بائسة ، وأهلونا أغلبهم نيام .

نورُ غرفتها مُضاءٌ . لما اقترب من الباب ، سمع حفيفاً يتخلَّله وقع خطواتها . دقَّات الخطوات تنبئُ بأن فى قدمها حذاءها الأنيق ، ذا الكعب العالى .. كعبٌ عالٍ فى غرفة النوم ، ساعة الفجر ! ماذا تفعل هذه المستهترة ؟ .. انتابه قلقٌ . اقترب حتى وقف قبالة بابها ، ومن يده اليمنى تدلَّت ملابسه الداخلية . التفتت لعريه بنظرة احتقار ، ثم تابعت إغلاق شنطتها الكبيرة . ببعض المجهود ، أنزلت الشنطة الكبيرة ذات العجلات ، على الأرض . والتقطت من دولابها شنطةً جلديةً أصغر حجماً ، وراحت تدسُّ فيها بعض كتبها المجلَّدة ، المجلَّد الأخير كادت معه الشنطة أن تنفزر . هزَّتها بعصبيةٍ حتى تمكنت من دسِّ المجلد ، ثم أغلقتها بإحكام . فتحت الجيب الجانبى للشنطة ، استعداداً لوضع شئ فيه .. هى فى كامل ملابسها ، الملابس الرسمية غالية الثمن ، التى ترتديها عند السفر الطويل . لم يشأْ أن يُظهر جزعه . لا داعى للجزع أصلاً ! عليه فقط أن يقول شيئاً ، أىَّ شئ يدلُّ على أنه متمكِّن .. مكين ، لا مسكين .

– رايح على فين يا جميل ؟ البلد دى أحسن من غيرها .

لم ترد . رفعتْ وسادةَ سريرها وملاءته ، لتخرج من تحتهما ملفاً كحلىَّ الغلاف ، تطلُّ من جوانبه أطرافُ أوراق بيضاء .. هى ليست أوراقاً عادية ، ومادامت قد أَخْفتها بهذه العناية ، فلابد إنها الرسائل المشئومة . الملعونة . كانت تنام كل ليلة ، ورسائل أمها نائمة تحت وسادة رأسها !

شعر **عبده** بدمٍ حارٍّ يتدفَّق فى دماغه . هاهى ، أخيراً **الرسائل** التى طالما حَيَّرته ، التى تمنىَّ أن يعرف مافيها ، التى كرهها قبل أن يعرف مافيها .. تقدَّم نحوها ، وقد أوشكت أن تدسَّ الملف الكحلىَّ الغامض ، فى الجيب الجانبى للشنطة الجلدية.

بجرأة مفاجئة ، تقدَّم نحوها ومَدَّ يده لينتزع الملف ، فدفعت صدره بباطن يدها اليمنى ، بقوة .. من أين أتت بهذه القوة ؟ اندفع نحوها ثانيةً ، أحاطها بذراعيه وصدره . لابد أن ينتزع الملف . هذه الرسائل هى أمها . فلابد أن ينالها أيضاً ، فالنوال يشجِّع على النوال . استجمع قواه، وهَزَّها بعنف

لتُسقط ما بيدها ، فيلتقطه . صرخ فيها :

– ***هاتى الجوابات دى .***

دفعته عنها بكتفها اليمنى ، لم يتزحزح . مال بصدره ليقبض بيده اليسرى على طرف الملف ، فأطبقت عليه بكلتا يديها ، وهى تحتضنه لتحميه . راحت بقوةٍ واستماتة ، تزأر كلبؤةٍ جريحة .. ولكن ، أين اللبؤة من الأسد ! رمى ملابسه الداخلية ليحشر كلتا يديه بين الملف وصدرها. صدرُها وبطنها ، على كل حال ، طريان . نجح فى حصار مافى حضنها . هَزَّها بعنفٍ لتتمكّن يداه من الإحاطة بالملف ، ثم جذبه بكل عنفه الممكن ، فانتزعه . اهترأ غلافُ الملف وتناثرت منه أوراقٌ ، وتمزقت أوراقٌ . وظفر هو بما ابتغاه .. لاتزال معظم الرسائل بين دفتىْ الغلاف الأنيق المهترئ ، الغلاف الذى كان أنيقاً ثم اهترأ . لمع فى يديه وعينيه الضيقتين ، بياضُ الأوراق . أحسَّ بنشوة الظفر بالأم ، تنضاف لنشوة ظفره بابنتها . الليلةُ ليلة الظفر العـــام ، والانتصار التام ، وبلوغ التمام .. لكنها لم تيأس بعد ، ارتمت على الرسائل بكَّفيها وكتفيها ، وكادت تمسك بها بإحـــكام ، لولا أنه استدار ليحمى بظهره مافى قبضتيه ، فدارت معه وحاولت ثانيةً فدفعها ثانيةً بكتفه اليمنى ، بعدما نهشت أظافرُها ظهرَ يديه وبعضَ الأوراق .

لهث **عبده** بشدة ، وهو يبتعد عنها خطوتين صغيرتين ، ليتمكن من النظر فيما تبقى بيده من الرسائل . عند ركن الغرفة، وقف مولياً وجهه جهة الزاوية ، وقد تتابع لهاثه . بنهمٍ محمومٍ ، فتح الرسائل وكأنه يفتض بكارةً كانت من قبل عصيةً عليه ، فعاوده الانتشاء بهذا التحكم الفريد .. لقد انفتحت بقبضتيه ، الأمُّ العظيمة . انفتح الآن كل ما كان مغلّقاً ومغلَّفاً ، و لم تعد هناك أسرارٌ خفية .

غنيمة **عبده** من الأوراق ، كل مجموعةٍ منها يمسكها دبوسٌ ملون . بلا اهتمام ، طوّح الأوراقَ المفكَّكةَ بأول المجموعات وبآخرها ، وبدأ ينظر فى المجموعة الأولى . لم يكن قد رأى شيئاً بعد ، حين باغتته هى من خلفه بضربةٍ مزلزلةٍ ، نزلت على مؤخِّرة رأسه . لم يعرف حين بوغت، أن الضربة كانت بالشنطة الجلدية المكتظة بالكتب المجلدة . وأن الضربة كانت مدعومةً بكل ما فيها من شراسة الأنثى . وأن الضربة كانت مقدمةً لإطباقها بأسنانها ، لتعضَّ بقوةٍ لحم قفاه .. غاصت أسنانها فى لحمه ، فأسالت دماً لن يتحسَّسه إلا صبيحة اليوم التالى . أخذه دوارٌ فاستند للحائط ، وبالنذر اليسير الذى تبقَّى فيه من عزم المتشخشخين ، رمى الرسائل . كان يريد أن يصفعها بها على وجهها ، فصفع بالرسائل فضاء الغرفة ، فتطايرت الأوراقُ المفكَّكة والرسائلُ المجمَّعة .. خارت قواه ، فخرَّ جالساً بعدما أسند ظهره إلى

زاوية الغرفة .

بالكاد ، انتبه إليها وهى تجرُّ عجلات الشنطة الكبيرة ، وقد علَّقت بكتفها اليمنى ، شنطةَ الكتب . عند باب غرفتها التى صارت أرضيتها مغطاة بالرسائل المجمَّعة ، وقطعها الممزقة . التفتت للوراء بحدَّةٍ . وباشمئزازٍ عارمٍ ، وبكل الاحتقارِ الذى هاج بقلبها تجاهه ، والحقدِ المريرِ الذى لن ينمحى أبداً ؛ بصقت ناحيته .. ورحلت .

عرف وهو يخور كثورٍ مذبوح ، أنه لن يرى امرأته بعد ذلك ، أبدًا .. شعر بالإنهاك يبلغ به المنتهى ، فلم يقدر على تحريك قدميه ، بل لم يستطع إبقاء عينيه مفتوحتين . فتركهما ينغلقان ، وقد أسند رأسه للزاوية .. ظهره الساقط يلتصق بزاوية الحائط ، بلا حراك . عيناه زائغتان وساقاه ممدوتان على الأرض بلا استطاعة ، ورأسه يطنُّ بالخيالات .

استطاع بعد هنيهة من دوار ، أن يُميل رأسه إلى حافة السرير ، وتهيَّأ للإغفاء . سمع محرِّك السيارة يزمجر من بعيد ، فيشق السكون الذى بداخله . هى إذن ستأخذ سيارته ، وترحل . مَرَّ بذهنه المرهق ، سؤالٌ مترنِّح : كيف تأخذ السيارة التى أذهب بها للعمل كل يوم ؟ كيف ؟ .. ثم طافت برأسه إجابةٌ مترنحةٌ متشخشخة : صحيح أنها اشترت السيارة قبل عامين ، ولكننى أنا الذى كنت أقودها معظم الأوقات . هى دفعت ثمنها، لكننى كنت أدفع ثمن وقودها معظم الأوقات . نحن شركاء فيها ، فكيف تأخذها بهذه البساطة . الغادرة . آه ، أوراق السيارة مسجَّلة باسمها هى . لو كنتُ قد تحسَّبتُ لهذا الغدر ، ووفَّرت ثمن الوقود خلال عامين، لكنتُ اشتريتُ سيارةً مسجَّلة باسمى ، أو دفعت مقدَّماً لها وقسَّطت الباقى .. لايهم ياعبده ، إذا كانت قد طمعت فى السيارة ، فلتأخذها . سأذهب للعمل كل يوم ، بواحدٍ من تلك التاكسيات التى تجوب الشـــوارع ، كالذباب !

...

مَرَّ عليه وقتٌ لايعلمه إلا الله . هل كانت إغفاءةً يسيرة ، أم نوماً طويلاً ذلك الذى أخذه حتى فتح عينيه ، ليرى ضوء الشمس وقد افترش الأوراق التى تفترش أرضية الغرفة . بدا المشهدُ كحلم ، أو هو كإفاقةٍ من حلم . وبدا له أنه قادر على النهوض ، أو الحبو على يديه وركبتيه .

زحف ، حتى صار بمنتصف الغرفة . داس فى طريقه بعض الأوراق ، وجرف بركبتيه بعض الرسائل . أحسَّ بأنه جندىٌّ فَرَّ من احتدام معركة ليلية تفانى فيها الجيشان ، ثم عاد صبيحة ليلة المعركة

ليجوس فى ساحة القتلى .. ما كُلُّ هذه الأشلاء والدماء والجثث !

ظل يحبو ، حتى ألصق ظهره بباب شرفة الغرفة . الضوء هنا أكثر : لو كان شعاع الشمس يدخل هذا البيت ، لكانت السكنى فيه أحلى . آه ، إنها السادسة صباحاً ، أو السابعة ، أو أى ساعة كانت . ماعاد الوقت يهم ، فالمهم الآن أن ارتاح . لاراحة فى هذا البيت . الراحة وصندوق البريد لايجتمعان . اليوم سأنزعه من مكانه ، سأحرقه . لن تأتى بعد اليوم رسائل ، وهى لن تأتى يوماً لتقرأها .. لا أريدها ، ولا أريد أية رسائل . رسائل بدون الراء ، تكون **سائل** والسائل هو الشحَّات . أنا لست شحَّاتاً . عندى هذا البيت ، وعندى وظيفة جيدة ، وقدرة جنسية ، ومؤدَّب .. سأجلب إلى هذا السرير كل نساء الأرض ، لن أضاجعهن إلا على هذا السرير الذى نامت هى عليه سبع سنين . لن أشبع منهن ، ولن يشبعوا منى . ولن أتزوج ثانيةً ، قط ، فالزواج حماقةٌ لايجب أن تُقترف مرتين .. والأفضل ألا تُقترف على الإطلاق . وإلا ، فما يدريني إنْ تزوجتُ ثانيةً ، أننى سأقضى سبع سنين أخرى ، لأكتشف بعدها أننى لا أعرف المرأة التى تزوَّجتها ، أو أُفاجأ بأن لها أُمّاً ترسل إليها بالرسائل .. الرسائل .. ما الذى كانت تقوله فيها لابنتها ، هذه المرأة الكافـــرة ؟

السؤالُ الأخيرُ أيقظ **عبده** من هيمانه وتهويماته . وكان ضوءُ النهار قد اشتدَّ بما يكفى للقراءة ، فراحَ يلتقط الأوراق المتناثرة .. جمعها من أرضية الغرفة ، كيفما اتفق له . أسند ظهره للحائط الملاصق للشرفة بعدما كَوَّم الأوراق التى جمعها ، بلا ترتيب ، بين رجليه .. وبعينٍ زائغةٍ وَسْنانةٍ ، قرأ دون أن يفهم تماماً ، الآتى نصُّه من رسائل نجتْ وأخرى تمزَّقتْ :

رســـالـــــة

آه يا ابنتى الحبيبة .. مالى أشعرُ بك هذه الأيام ، بداخلى ، وكأننى أُوشكُ أن ألدُكِ من جديد . شعورٌ عجيبٌ، غامضٌ ، لم أحسُّه من قبل . ها، لقد رأيت الصور التى أرسلتها لى ، صباح أمس ، عبر الجهاز الجامع . صورٌ جميلة . طبعتها اليوم على ورقٍ كبيرٍ مصقول ، لأشعر بها أكثر . اقتضى ذلك زيارة لأقرب مدينة . تبعد عن موقعى ساعاتٍ ثلاثة ، عَبْرَ طرقٍ وعرة . لكن الأمر كان ، حقاً ،

يستحق .

وجهُك فى الصور يبدو شاحباً ، وزوجُك يبدو حائراً ، وأثاثُ بيتك لايبدو منه أىُّ شئٌ . ما هذا الديكور يا ابنتى ! ما هى الصلة بين لون الحوائط ، ولون ما تناثر عليها من لوحات وتمائم وحليات .. وما هذا الأثاث ؟ لابد أن زوجك هو الذى اختاره ، فلا طراز يجمع بين مفرداته . أم أن جَدَّك اشتراه لك ، خالطاً كعادته بين كل تراث الإنسانية . لا يا ابنتى . إذا عمرتِ بيتاً آخر ، فلتجعليه متآلفاً . وليكنْ بيتك مرآةً يتجلَّى على صفحتها ، تناغُمك الداخلى العميق. لا تضعى قطعة أثاث أو لوحة أو حلية جدار ، إلا إذا خفق قلبك أولاً بحبها . فالحبُّ هو الأصل فى إيجاد الأشياء . بالحب أنجبتك . وبالحب أنجبت الأنثى العالم .

أوتعرفين ، كان أبوك يشكِّك فى أصل الحب ! كان يعتقد أنه عاطفةٌ طفرت بين البشر، حين قام نظامُ الأسرة فى مصر القديمة ، حين صار الأمر بين المرأة والرجل قَصْرياً وقَسْرياً . ومع القَصْر والقَسْر ، وصف الناسُ كل اشتهاءٍ غير مُستحب ، بأنه (عاطفة) الحب ! كان يقول ذلك ويكرِّره ، مختالاً باكتشافه هذا المذهب ، متفنِّناً فى تأكيده والإقناع به ، بما لاحصر له من أسانيد يتوهَّمها ! منها أن نوال المحبين مقدمةٌ لانطفاء الحب ، وأن عدم النوال يؤجِّجه . ومنها أن الحب فى كلام الأطباء الحكماء القدماء، هو نوعٌ من المرض النفسى . ومنها أن أشهر قصص الحب ، اشتهرت لأنها اقترنت بالحرمان، لا النوال .. كان أبوك رجلاً طيباً .

لما التقينا أول مرة ، همس ليلتها بأذنى وهو يودِّعنى ، أنه اكتشف زيف مذهبه فى الحب . وباح لى بأنه تأكَّد ، معى ، من أن الأمرَ أعمقُ مما كان يظن . بعد زواجنا بثلاث سنوات ، قال لى صبيحةَ ليلةٍ عاصفةٍ بالعشق ، إنه سيظل يحبنى إلى آخر عمره .. وبعد يومين ، مات ميتتة الفاجعة التى لا معنى لها : حادثةُ سير .

أردتُ أن أضع بين طيَّات كفنه ، خلسةً ، رقائق من جلد أفعى محنَّطة ، كنت أحتفظ بها . حنَّطها أهلُ مصر العليا ، قبيل انتشار المسيحية فى ديارهم . شعرتُ أن ذلك سيجعله ، على نحوٍ ما ، مرتبطاً بالخلود . جدُّك ثار ثورةً لم يبلغ مداها من قبل ، ولا من بعد . قال لى : بل أنت الأفعى ، وأنت الشيطان ! سعدتُ بالوصف الأول ، وتعجَّبت من الوصف الثانى .. لاتستغربى سعادتى ولا تعجُّبى ، فسوف أُحدِّثك اليوم عن الأفعى ، وربما حدثتك فى رسالة أخرى عن الشيطان ، الذى جعله البشر ممسحةً لأخطائهم . ولكن دعينى يا ابنتى أكملُ لك رسالتى فى المساء ، فالسماء اليوم صافية . ولابد أن

القمر ، سيكون الليلة أشد سطوعاً . والكلام عن بهاء الأفعى، يزداد وَهَجَاً فى ضوء القمر ..

...

يَوْمَ أُفنِي كُلَّ ما خَلَقْتُ

ستعودُ الأرضُ محيطًا بلا نهاية ،

مِثْلما كانتْ فى البَدْءِ .

وَحْدى ، أنا ، سَأبقى

وأَصِيرُ كما كنتُ قبلاً

أَفْعى ، خفيةً عن الأَفْهامِ .

تلك يا حبيبتى ، ترنيمةٌ لإيزيس (إيزُت ، بحسب النطق المصرى القديم) سجَّلها المصريون القدماء ، قبلما تتشوَّه صورةُ الأفعى فى الأذهان . كان ذلك فى الزمن القديم ، الذى اتخذت فيه الربة المقدَّسة الأولى ، رمزاً هو أقرب ما يكون لطبيعتها . كانت الأفعى رمز الرَّبَّات إنانا وعشتار وإيزيس وأرتميس .. بل كانت رمزاً لكل الإلهات على اختلاف اسمائهن ، وعلى تباعد البقاع بين مواطن عبادتهن . وقد صارت الأفعى من بعدهن ، شعاراً لآلهة ذكورية مصطنعة ! لإله الحكمة المزعوم **هرمس** المثلَّث العظمة ، ولإله الطب عند اليونان إ**سكليبيوس** ولآلهة كثيرة غيرهما . ولا أدرى، كيف تَسنَّى للذكور المؤلَّهين ، أن يتبجَّحوا فيتَّخذوا من الأفعى شعاراً .. وهى كما سترين بعد قليل ، موغلةٌ فى الأنثوية .

وكانت الأفعى دوماً ، شعار كل الملكات العظيمات فى الأزمنة الأولى : سميراميس ، حتشبسوت ، نفرتيتى ، كليوباترا .. وغيرهنَّ من ملكات **الأزمنة الأولى** التى كانت الإنسانية خلالها ، لاترى بأساً فى أن تحكم النساء . بل ترى أنه من الطبيعى أن تحكم النساء ، وأن يتخذنَّ من الأفعى شعاراً .. وبالفعل ، حكمت النساء ، كثيراً ، فى فجر الحضارات الإنسانية . كن حاكمات وقاضيات فى معظم الحضارات القديمة ، حتى انقضى النصف الأول من حضارة مصر ، ومن حياة **سومر** .. ثم تغيَّر الحال ، فجاءت اليهودية لتحرِّم على المرأة أن تكون حاكمة أو قاضية ، بعدما دنَّس كتبةُ التوراة بضربةٍ واحدةٍ ، المرأة والأفعى . ونجحت اليهودية فيما كانت تحلم به ، فأُفرغ شعار الربات (والأرباب) والملكات العظيمات، من مضمونه القديم المتوارث لآلاف من السنين .

لماذا اتخذنَّ **الأفعى** شعاراً ؟ .. لو نستطيع أن نفرِّغ صورتها فى أذهاننا ، من كل أحكامنا الوهمية الموروثة ، المضغوطة فى عقولنا بثِقَل خرافاتٍ وثقافاتٍ توالت فى الأزمنة الأخيرة ، ودعمتها الاعتقادات الساذجة المتينة .. لو استطعنا ، لرأينا **الأفعى** مجردةً . الأفعى فى ذاتها، بعيداً عن أوهامنا . الأفعى البديعة ، الغامضة ، المليئة بالأسرار والألوان والروعة .

بالمناسبة ، هل تعلمين يا ابنتى أن تسعين بالمائة من الأفاعــى ، غير سامٍ . وأن مائة بالمائة من الأفاعى ، لا تهاجم إلا إنساناً اعتدى عليها ، أو عبث بجُحرها ، أو اقترب من ذريتها .. الأفعى كائنٌ مسالــمٌ فى الأساس ، ينأى بنفسه بعيداً، ويميل دوماً للانزواء . عُنفها مبرَّرٌ بأسبابٍ واضحة. لاتنــزع للهجوم إلا إذا هوجمت . وفى هجومها إنذارٌ ، لا غدر. فهى تنتصب محذِّرةً ، فإن ابتعد عنها مصدرُ الخطر المهدِّد، انسربتْ مبتعدةً . وإن لم يلق إنذارُها صدىً عند المهاجم ، نهشته خاطفــةً ، وهربت !

وجلالُ الأفعى الممزوج بجمالها ، يتجلَّى على أنصع صورة، فى النوع الأكثر قداسةً عند أهل الأزمنة الأولى، النوع الذى نعرفه اليوم بعدة مسميات ، أشهرها اسم **الكوبرا** . أرأيتِ يوماً ، قوة نظرتها لعدوِّها ؟ وهل تأملتِ وقفتها المهيبة ، البهية ، إذا ما تهيَّأت للهجوم .. هل نظرتِ إليها بعمقٍ ، وقد تمايلت برقَّــةٍ على نغمات الناى الرقراقة ، أمام الهندى النحيل الذى يعزف بروحه موسيقاه . هى لاتسمع موسيقاه ، ولكنها تقرؤها فى جلسته الخاشعة .. فهل يستطيع كائن آخر ، غير الأفعى ، أن يقرأ الموسيقى فى هيئة الأجسام ؟

والأفعى ، تعرف دوماً طريقها .. انتبهى إليها إذا انسربتْ فى مساراتها ، كيف تنسابُ برشاقةٍ ناعمة . وبنعومةٍ رشيقةٍ ، لاتكاد تلامس الأرض ، وهى تدلف إلى حيث تريد . لاتصطدم بشئ فى طريقها ! فهى تعرف جيداً، إلى أين يتجه زحفها .. الزحفُ ، مشيُها ، وهى التى بلا أرجل . مشيُها ، إبحارُها فوق الأسطح ، فوق أمواج الرمال الناعمة ، على أقسى الصخور صلابةً ، بين الأدغال وأغصان الشجر .. الزحفُ . ألا ترين أن الجيوش قد اختارت هذه الكلمة بالذات ، لتعبر عن تنقُّلاتها . يقولون : زحف الجيش . لا (مشى الجيش) أو (طار) . فإذا تقهقر الجيش ، يقولون : انسحب ! والزحف والانسحاب ، يا ابنتى ، هو شكل حركة **الأفعى** من قبل أن تصير للإنسانية عساكر وجيوش .

والجيوش ، تلك الصناعة الذكورية الرائجة فى الأزمنة الأخيرة . تمارس دوماً عنفها غير المبرَّر ، العنفُ المخمور بنشوات التوسُّع والهيمنة ، ورغبة الرجل النهمة فى الاستيلاء .

وكانت لغةُ الناس من التبجُّح ، بحيث استعارت لمسيرة الجيوش وصف **الزحف** المأخوذ من حركة **الأفعى** . الناس يا ابنتى ، لم يعرفوا أن الأفعى أكثر حكمة من تلك **الجيوش** التى لا عقل لها ، تلك الجيوش التى تعمل دوماً بأمرٍ من خارجها، أمرٍ يأتى ممن يسمونه القائد . والقوادُ قوادٌ يا ابنتى . إنهم الرجال الفُرَّاغ الذين يؤجِّجون حروب العالم ، وإن لم يجدوا الحرب أشعلوها ، ليواجهوا خرابهم الداخلى ، بتخريب العالم . هل تعلمين أن كثيراً من الحضارات الأولى ، المجيدة ، التى عبد أهلُها الربة وقدَّسوا الأفعى ، لم تكن لها جيوش نظامية .. عاشت تلك الحضارات زمناً طويلاً فى سلام ، وأعطت للإنسانية فى الزمن الأنثوى الأول ، كل بذور الحضارة : الزراعة ، الثقافة ، الاستقرار، الحنين إلى الوطن ، الضمير ، الديانة .. السلام ! لم يعتادوا أن يعتدوا على جيرانهم ، لم يجد الآثاريون أثراً لصناعة حربية بين حفرياتهم ، مثلما وجدوا فى المجتمعات الذكورية اللاحقة .. ثم انتهت الأزمنة الأنثوية ، السلمية ، البديعة ، بالإزاحة التدريجية للأنثى ، والانتقال بالمجتمعات إلى السلطة الذكورية الجوفاء ، على النحو الذى حكيته لكِ فى رسالتى السابقة عن تطور روح الحضارات فى سومر وبابل وآشور ، وعن روعة انبثاق الحضارة المصرية القديمة ذات الطابع الأنثوى الأصيل ، الإيزيسى .

نعود للأفعى ، التى لا يقودها إلا روحها وحِسُّها الباطن فيها . فنراها لاتعتدى للاعتداء أو لإظهار البطش ، مثلما يفعل العسكر . لا تقاتل إلا للدفاع، ولا تسعى للتوسُّع مثلما يفعل القواد القواد .. ومع أنها تهضم أى شئ تبتلعه ، مهما كان ، فهى لاتتخم نفسها مثلما يفعل الإنسان .

فتدبَّرى يا ابنتى ، مَنْ الذى من شأنه أن ينظر للآخر ، نظرة الوجل والازدراء والتأفُّف : الإنسان أم الأفعى ؟ .. إن الأفاعى لو كانت لها لغةٌ ، لحفلت آدابها بنصوصٍ فى تحقير البشر ! تحقير حضارة الرجل الحديث ، تحديداً . لأن البشر قديماً، كانوا يعرفون قَدْرَ الأفعى . كانوا يبجلونها باعتبارها رمزاً وتجلياً وصورةً للربَّة الخالقة ، للأنثى المقدَّسة فى كل الحضارات القديمة . كان الناس فى مصر القديمة ، يؤمنون بأن الإله الأكبر (آتوم) يتخذ فى الأرض صورة الأفعى .. وتنبَّهى هنا يا ابنتى ، إلى أن **آتوم** ذاته ، هو صورةٌ إلهية متأخرةٌ نوعاً ما، ولأنها (متأخرة) فهى ذكورية .. أما الصورة الإلهية المصرية الأصيلة ، الأولى ، المعروفة باسم **وازيت** فهى صورة الربة الأنثى ، الخالقة التى اتخذت قبلاً ، ومنذ زمن ما قبل الأسرات ، صورة الأفعى المحيطة بالوجود .

أوتعلمين يا ابنتى ، كان أهل الأزمنة القديمة يبنون للأفعى المعابد . والعجيبُ أن أكبر عدد من هذه المعابد، اكتُشف فى أرض **فلسطين** التى شهدت كتابة أسفار العهد القديم ، التوراة ، أول كتاب طمس

صورة الأفعى وجعلها مرتبطة بالشيطان وبالمرأة وبالشر ! وفى مطلع القرن الماضى (سنة 1903) اكتُشف فى فلسطين ، أكبر هيكل مخصص لتقديس الأفعى ، وجد الآثاريون فيه آلاف الأفاعى المحنطة ، وتمثالاً برونزياً ضخماً لأفعى الكوبرا .. هييه ، سأحكى لك واقعةً طريفة ، حدثت معى .

قبل مولدك بأسابيع ، ظل الطبيب المتابع لحملى ، يلحُّ أن تكون **الولادة** بشقِّ بطنى! الولادة الفاضحة المسماة قيصرية . رفضت ذلك تماماً . رجانى أبوك أن استجيب لرغبة الطبيب ! رجاءٌ عجيب . هذه رغبته ، فأين رغبتى ؟ أفهمته أن الطبيب يرغب فى الفعل الأسهل له ، وإننى أرى فى ذلك كفراً بأهم أفعال الأنثى ، فعل الانبثاق والولادة ..

فى ليلةٍ ماطرة ، جاءنا جدُّك يزهو بأكتافه العالية وعصاه الصولجانية ، فحضر مناقشتنا للأمر . راح ليلتها ، طيلة جلسته ، ينظر إلىَّ شذراً . لم يستطع كتم غيظه ، حين قلتُ ما معناه إن شَقَّ البطن لإخراج الطفل ، هو أشبه بالعثور على جوهرةٍ بنبش الرمال ، وأشبه بالتنقيبِ الأثرىِّ لاستخراج قطعة من تمثال قديم ، وأشبه بخطة ذكورية لسلب المرأة فعلها الأكثر روعة . رَدَّ جَدُّك بحنقٍ مكتومٍ ممرورٍ ، فقال ما مفاده أننى (لابد) أن أرضخ لرأى الطبيب ، وأننى (لابد) أن أستجيب لنصح زوجى، وأننى (لابد) أن احترم رغبة الآخرين ونُصْحِهم ، فلست الوحيدة المعنية بالأمر . مازلتُ أذكر اللحظة التى احتدَّ فيها حوارنا :

– اسمعى كلام زوجك ، هو والد الطفل الذى فى بطنك !

– إنما أنا الوالدة . الرجل لا يلد ، ولا يصح وصفه بالوالد .

أثار رَدِّى أول عاصفةً كبرى من عواصفه التى تتالت بعدهـــا ، سبع سنين . وقام جَدُّك من فوره منصرفاً ، بعدما ألقى علينا نظرتين ، واحدةً ملؤها الحقد قذفها فى وجهى ، وأخرى تطفح بالازدراء رماها نحو أبيك .. على مرآة عين أبيـــك ، انعكست نظرةُ أبيه ، لتصلنى ملفوفةً بتوسلٍ ورجاء . جلس بجوارى ، وبكل تحنانه المعتاد ، الآسر ، سعى لإقناعى بأن ألد بشَقِّ بطنى . همس إلىَّ طويلاً ، وأنهك الأمر توضيحاً وتفصيلاً . احتج بخوفه علىَّ ، وبأن معظم النساء اليوم يلدن بشَقِّ البطون ، وبأننا صرنا فى نهاية القرن العشرين ولا يجوز أن نفعل فعل القرون الأولى ، وبأننى لو عانيت ألم الولادة ، فسوف يعانى هو لمعاناتى (كيف كان سيعرف **هو** معاناة الولادة) وأنهى هَمْسَه المستعطفَ ، بأنه لن يطمئن علىَّ ، إلا لو أطعت الطبيب .

– لن ألدَّ ، إلا كما تلدُ الأنثى .

قلتُ ذلك ، فانسحب أبوك من حضرتى متكسِّرَ الأركان، ملفوفاً بالحيرة .. بعد يومين ، استبدلتُ بالطبيب طبيبةً فهمتنى . يوم مولدكِ ، كنت واعيةً تماماً بلحظة إطلالتك الأولى ، لحظةِ اقتران ألم المخاض بنشوة الخلْق والإيجاد . وامتزجت ساعتها معاناةُ انبثاقك من باطنى ، بمعاناة انبثاق الروح فى بدنك . لحظتها بكيتُ ، مثلما بكيتِ .. بكينا معاً . وتحقَّقت بأننا ، أنتِ وأنا ، توحَّدنا مع الأفعى التى تنبثق من جلدها القديم لتتجدَّد **حيةً ، عصيةً عن الأفهام** .. لقد شعرت وقتها ، يا ابنتى ، أننى إذ ولدتُك هكذا ، فإننى وهبتك أول ارتباط بالأفعى المنبثقة من ذاتهـــا ، من جلْدِها القديم ، من وجودها السابق (وجودى أنا) منبعثةً إلى وجودها المتجدِّد .. الدائم .. المرتبط بالخلود : وجودك أنت .

وللأفعى يا ابنتى ، أسماءٌ ومترادفات فى كل اللغات . ومادمنا قد اخترنا اللغة العربية ، أو العربية اختارتنا ؛ فتعالى ننظر فى المترادفات ، لنقترب أكثر من معنى الأفعى .. ذلك المعنى الذى لايمكن لأى لغةٍ أن تحيط به، مهما كانت ! ومهما أحطنا بها ، أو أحاطت بنا .

إن أشهر مترادفات **الأفعى** العربية ، هو لفظ **الحية** وهو اللفظ الذى اختاره كل مَنْ ترجموا **التوراة** إلى نسختها العربية. ربما نعود لتأمُّل النص التوراتى بصدد (الحية) التوراتية بعد قليل . لكن دعينا أولاً نستشرف آفاق لفظ **الحية** الذى هو اللفظ **الأصل** فى التسمية العربية . إذ **الأفعى** فى متون لغة العرب : نوعٌ من الحيَّات ، سميت بذاك لأنها تلتفُّ ولا تبرح مكانها .

تمتاز **الحية** فى وعى العرب اللغوى، بأنها مشتقة من (الحياة) ومنها سميت أم البشر ، بحسب اعتقادهم : حواء . وللحية والحيا فى العربية معانٍ ، كلها خطيرةٌ ودالة . المعنى الأول، الألصق بالمرأة ، هو أن الحيا **فَرْجُ المرأة** وفى لسان العرب : ***الحيا فرج الناقة .. والحىُّ فرج المرأة ! وحية وحواء وحيا ، ألفاظ اقتربت أصولها ومعانيها*** . هذا هو ما قَدَّروه ، وسجَّلوه بأقلامهم فى المعاجم العربية القديمة .

والحيا أيضاً ، فى اللغة : المطر والخصب . ومعلومٌ يا ابنتى أن المطرَ ماءٌ ، والخصبَ نتاجٌ للأرض التى سُقيت ماءً . الماء المخصِّب ، والأرض المخصَّبة ؛ كلاهما حَيَا .. كلاهما حياة .. كلاهما حواء .. كلاهما الحية .

الحية عكس الميتة .. الحيةُ ضد الفناء .. الحيةُ مرادفةٌ للخلود ، والانبعاث ، وتجدُّد البقاء .. الحية ،

أنت وأنا لحظة مولدك، لحظة الميلاد التى تتحقق بها أنوثة الأنثى، على نحو لا مثيل له . والحيةُ ، هى روح الوحىُّ الأنثوىُّ السارى فى النساء ، خافتاً كالفحيح ، منذ فجر الوجود إلى يوم منتهاه .

واعلمى يا ابنتى ، أن ما يؤنِّث الأنثى ، هو أمرٌ أعمقُ من انتفاضة ثدييها عند البلوغ ، أبعدُ من استدارة ردفيها عند الاكتمال، أروعُ من العاصفة المكتومة التى تمور بجسمها عند الشبق ، أبدع من زينتها العشتارية البهية ليلة زفافها .. هذه كلها تمهيداتٌ ، إشراقاتٌ وإلماحات تومئ إلى لحظة التوهُّج العلوية : لحظة الإنجاب . لحظة الانبثاق . لحظة تجلى الوحى الكامن فيها منذ الأزل ، وإلى الأبد .

.. وللحيِّة معانٍ مستترةٌ عن أعين الناس ، وَشَتْ بها اللغة ، وتناساها الناس . الناسُ نسيانٌ . فمن مستتر معانيها، ما يأتى فى متون اللغة عند الإبانة عن لفظ **أله** .. ولا تندهشى من قول اللغوى الشهير ، ابن منظور ، إن **الإلهه** هى الحيةُ العظيمة ! وفى بيان مادة **لوه** يقول فى كتابه المشهور **لسان العرب** ما نصه : ***اللاهة هى الحية ، واللات صنمٌ مشهور يكتب بالتاء (اللات) وبالهاء (اللاه) والأخير هو الأصح ، وأصله لاهه وهى الحية !***

ومع ذلك ، أهيل غبار النسيان على تلك المعانى الكامنة فى لفظ (الحية) وسارع أهل اللغة إلى طمسها بمعانٍ أُخر، ترتبط فى وعيهم المتأخِّر ، المتخلِّف ، بالأنوثة المستهان بها .. الأنوثة التى أمعنوا فى إزاحتها عن عرش القداسة ، وفى الحطِّ من شأنها بكل السُّبُل . مازلت أذكرْ نوبة الضحك الهيستيرى التى انفجرت منى قبل عشرين سنة، حين قرأت فى **لسان العرب** تحت مادة (أنث) ما نصه : ***الأنثى خلافُ الذكر فى كل شئ ، والجمع إناث وأُنُث ، كحمارٍ وحُمُر !***

ولكن ، مثلما تنـــزوى (الحية / الأنثى) وتستتر أسرارُها بعيداً عن الأعين ، تستتر معادنُ الحكمة وتنـــزوى فى أرض الأفهام . وقد عرف التاريخُ ، بعد انقضاء الزمن الأنثوى الجميل، بعضاً من رجالٍ حكماء عرفاء . عرفوا ما للحية ، وما للأنثى ، من معنى أصيلٍ لاتدركه الأبصار والأوهام والظنون . وتحقَّقوا من أن الحية صنوُ الحكمة ، وتوأم الوجود العميق للعالم . ومنذ بدء الخليقة ، لم يخل العالم قط من واحدٍ من هؤلاء العارفين الحكماء الذين أدركوا سِرَّ الحية ، ولمحوا بهاء (الأنثى / الأفعى) .. غير أن بعضهم كتم السر ولم يبح ، وبعضهم باح به رمزاً وتلميحاً ، مثل **سيف بن ذى يزن** الذى أحاط بسيرته الحضورُ الأنثوىُّ الطاغى ، فرسم الحية على صفحة سيفه البتار . وبعضهم ألمح للأمر من بعيد ، مثلما فعل ذلك الرجل البديع . المتحقِّق فى تصوُّفه بما للمقام الأنثوى من روعة .. الولى الكامل ،

العاشقُ البصير بدروب العشق ، المحب حتى الثمالة ، الذى حكى فى كتبه عن **الحية** المحدقة بجبل قاف ، الشيخ الأكبر والنور الأبهر والمطلع على السر الأخطر (محيى الدين بن عربى) الذى كتب رسالة فيما لايعول عليه ، فقال : ***المكان الذى لايؤنَّث ، لايعوَّل عليه !***

يا ابنتى ، لقد سطعت شمس النهار ، وكَلَّت يدى .. فاعذرينى . ولسوف أعود للكتابة إليك . ولسوف أعاود زيارتى لك ، عند الفجر ، فى أحلامك .

رســـالـــة

(ممزقة من أولها وآخرها)

.. ومنهم سارة آدم ، وهى أشهر متخصصة أوروبية فى التراث الشرقى ، خلال القرن الماضى . درستُ على يديها فى بداياتى، بغرب أوروبا ، لمدة عامٍ انتهى مع اغتيالها بوحشيةٍ على يد جماعة دينية سرية ، وهى فى الخامسة والسبعين من عمرها .. كانت عظيمة، ومزعجة . ومع أنها كانت معروفة لدى الكافة بصرامتهـــا ، إلا أن أحجار قسوتها كانت تتشقَّق فى أحيانٍ نادرة ، فينبع منها ماءُ الحنو الرقراق. وكان من أعجب ما سمعته منها ، قولها لى قبل مقتلها بأسبوع : لا تصدقى يا ابنتى كل ما يقال ، خاصةً فى أمرٍ خطيرٍ مثل الاعتقاد بأن **وأد البنات** كان عادةً لدى كل العرب ، فى الزمن المسمى اعتباطاً بالجاهلية . يمكنك بالطبع أن تصدِّقى ماجاء فى القرآن . ولكن ، ما الذى جاء بالضبط فى القرآن ؟ إنه إشارةٌ مبهمةٌ وردت فى الآية المخبرة عن أحوال يوم القيامة ﴿وإذا الموءودة سُئلت بأى ذنب قُتلت﴾ هو حتى لم يقل : ***وإذا الموءودة سألتْ*** .. لقد نفى عنها الفعل بالكلية ! والمفسرون ذهبوا بهذا الأمر مذاهب شتى . لكن الأمر المهم والهام لنا هنا ، هو أنه لم يصل إلينا من زمن ما قبل القرآن ، خبرٌ موثوق به يقول إن العرب وأدوا البنات ! فكلها أخبارٌ تدوولت بعد الإسلام ، وكُتبت مع عصر **التدوين** أواخر القرن الثانى الهجرى .

ولو كان وأد البنات قد جرى حقاً ، كعادةٍ جاهلية منتشرة بين العرب قبل الإسلام . فكيف تناسل هؤلاء (الجاهليون) جيلاً بعد جيل ؟ وكيف تسنَّى للرجل آنذاك ، الزواج بأكثر من امرأة ؟

وكيف حملت القبائل العربية الكبرى ، أسماءً دالة على الانتساب للأنثى ، مثل كندة وثعلبة وساعدة وبنى أُمية (أُمية تصغير أم) وكيف اشتهرت نساء ذات مكانة من كلا الفريقين ، مثل السيدة **خديجة بنت خويلد** الغنية الموقَّرة التى رعت الإسلام فى مهده ، ومثل السيدة **هند بنت عُتبة** زوج أبى سفيان بن حرب بن أمية ، أمِّ معاوية أول ملوك الإســـلام ، آكلة كبد الحمزة عم النبى .. هل يستقيم ذلك ؟ هل كانت النساء ذوات المكانة ، سيسمحن بوأد بنات جنسهن ؟ وهل كانت دعوة الإسلام ، ستُعارض عقب وفاة النبى بدعوة امرأة أرادت أن تردَّ الأمر إلى الأنثى ، أعنى **سَجَاح** التى نعرفها بلقب المتنبِّيـــَّة **!**

وأضافت يومها ، ما ترجمته : لقد عبد العربُ **الأنثى** قبل الإسلام ، عبدوا اللات .. والعُزَّى .. ومناة . الإلهات اللواتى ورد ذكرهن فى سورة النجم ، بعد آيات تشير إلى الاقتراب من الله لمسافة بسيطة ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾ اقرئى الآيات ، وتدبَّرى معانيها وتسلسلها ، وانظرى كيف انعطف النَّصُّ بقوةٍ حرجةٍ ، بعد الرؤى المعراجية، ليذكر الإلهات الثلاثة .

ولكن ، احذرى يا ابنتى هذه الرؤى ، ولا تشوِّشى ذهنك بما أورده **الطبرى** من قصة نزول تلك الآيات ، وإلا أدخلك ذلك فى متاهة الاعتقاد بآياتٍ شيطانية نُسخت من القرآن الذى بأيدى الناس .. الناس .. أراهم اليوم فى غيبوبة ، دخلوا فيها بعد ما انتهى مجد الحضارات القديمة، بعدما ساد الساميُّون وطمروا وحىَ الساميَات .

أوتعرفين ، لم يثبت فى التاريخ الإنسانى، أى أصلٍ دال على سام أو حام ، أو غيرهما من شخصيات هذه القصة العجيبة التى يتداولها الناس اليوم .

اليوم وقعتْ لى حادثة طريفة ، تدُلُّكِ على أن مثل هذه الشخصيـــات ، هـــى محض خرافـــات .. لأهل القرية المجاورة اعتقادات يصل إيمانهم بها إلى درجة اليقين التام . منذ أسابيع ، إحدى القرويات جاءتنى تحمل على صدرها ابنتها الصغيرة . البنت فى الثانية من عمرها ، فى عينيها إشراقُ مودةٍ فطرية . سألتُ أمها عن اسمها ..

رســالــة

(ظاهرٌ أنها أوُلى الرسائل)

أنا أُمُّك يا ابنتى ،

أنا الوالدة ،

أنا الرحم المقدَّس الذى انبثق منه وجودك قبل ثلاثين سنة . وأنا الملتاعة التى سلبوكِ منها ، قبل ثلاثة وعشرين عاماً . كيف انقضت تلك السنون ، سنون احتمائك فى ظل جَدِّك الشاهق العتيد . أعرفُ أنه مازال حياً . وأشعر أنه سوف يحيا طويلاً بعدُ . لايعنينى ذلك اليوم . فاليوم لا معنى عندى إلا أنت ، ولا يعنينى إلا ما اختزنته لك طيلة السنوات الماضية .. هل أخبرك جَدُّك بما تعهَّدتُ به يوم فراقى عنك . يوم انتزعك منى . يوم غلبنى وهَدَّ أركانى ، ببطشه العاتى . كان آخر كلامه لى ، آمراً، نفَّاذاً ، دابغاً كالملح لقلبى :

- **إنسى البنت ، وإيَّاك أن تتصلى بها .**

- **سأنتظر إلى يوم اكتمال وعيُها، واصبر حتى تبلغ ابنتى الثلاثين !**

لم يجب . أدار ظهره لى ، وانصرف بشموخٍ أجوفٍ ، شموخٍ فارغٍ كقلبى الذى صار من يومها ، كهواء العماءِ الأول .. عماءِ بدء الخليقة .

كانت الظروف كلها ، أيامها ، ملائمةٌ لما يبتغيه جَدُّك. فوفاةُ أبيك المفاجئة ، كَسَّرتْ لُبَّ قلبى .. أبوك .. كنتُ أحبه وكأنه ابنى الوحيد ، وأبى . وكنت وقتها أُعانى من مضايقات كثيرة ، بسبب محاضرة عامة ألقيتها قبل وفاته بشهر ، عَبَّرت فيها عن رؤيتى للحركة النسائية فى بلادك ، فقلت إن (المتنورات) اللواتى يطالبن بما يعتقدن أنه (حقوق) المرأة ، هُنَّ نسوةٌ أفرغن أنفسهن من الأنوثة الحقَّة ، وحَشَوْنها بالذكورة ! فصرن كائنات ممسوخة تطالب الرجال ، بمنطق الرجال ، أن يجعلن من النساء رجالاً . فهاجت علىَّ أقلام النسويات الرخوة ، وأهاجت أقلام الجماعات الدينية الصلبة ، التى كانت هائجة أصلاً ضِدِّى . فصرتُ أيامها بين شِقَّىْ الرحى ، إذ انصبَّت علىَّ فجأة ، لعناتُ الفريقين. وبدا دمى للجميع ، كأرضٍ تهَيَّأت للاستباحة وآنَ قطفُ أزهارها وقصفُ أشجارها . بدت أرضى خراباً ، وخرَّب باطنى موتُ أبيك ، وثورة جَدِّك . وكنتُ مشفقةً عليكِ ، وقلقةً، ومتيقنةً من أن جَدَّك لن

يتورَّع عن تنفيذ تهديداته لى ، بل هو يحب أن ينفِّذها . ولما أدركتُ أنه لن يكفّ عن سعيه لانتزاعك منى ، خشيتُ أن تتمزَّقى بيننا .. فتركتك له ، وقلبى فيه ما فيه .

لكننى يا حبيبتى ظللتُ أتابعك من بعيد ، يوماً بيوم . صديقاتك فى المدرسة والجامعة، أمهاتهن كُنَّ من معارفى . مدرِّساتك وأستاذاتك ، كن من تلميذاتى . اللواتى رشَّحنك للعمل فى الهيئة الدولية لضبط الترجمة ، كُنَّ من زميلاتى .. أعرف أنك لم تشعرى بذلك من قبل ، لكننى كنتُ أشعر بك فى كل وقت . شعرتُ بك يوم تُهتِ من عَمَّتك الحنون ، فى الميدان الكبير المؤدِّى لمدرستك الابتدائية . كانت دمعاتك يومها، تسيل بجوف قلبى .. وفرحت معك يوم تقدَّم أول شاب ليخطبك ، الشاب المغرور الذى كان يعمل مهندساً للبترول . من الخير أن هذه الزيجة لم تتم ، مع أنك كدتِ توافقين .. فالولد يا ابنتى كان تافهاً .

أما ليلة زفافك ، فقد أقمت عرساً. كنتُ وقتها أقيم بكوخٍ خشبىٍّ على قمةٍ واحدٍ من أعلى جبال العالم ، لأدرسُ هناك رموزَ لغةٍ مندثرة ورسومَ كهفٍ اكتشفه بالصدفة ، متسلِّقُ جبالٍ .. ليلة عرسك ، أضأتُ فى الكهف ألفَ شمعة ، وأخذت أبتهلُ على نورها المتراقص، حتى بزغ الفجر .

بالمناسبة ، الخاتم الماسى الذى فوجئتِ به ليلتها فوق مخدَّتك ، حين دخلت غرفتك ، كان هَديَّتى إليك . أعرف أن جَدَّك صَمَتَ طويلاً ، حين قبَّلته شاكرةً إياه على مفاجأته السارة ! لقد أدرك هو الأمر ، لكنه لاذ بصمته وحيرته التى أدهشتك . أعرف أنك مازلتِ متعلِّقة بالخاتم حتى اليوم ، وأنك كثيراً ما تتأمَّلين صنعته الدقيقة، وفصوصه المبثوثة فى معدنه كنجوم ليلةٍ رائقة . نعم يا ابنتى ، الأمرُ كما قال لك الجواهرى المعروف الذى استفسرتِ منه عن الخاتم ، لقد صَدَقك حين قال إنه صنعةُ يَدٍ ماهرة ، ولايوجد فى أنحاء العالم إلا ثلاثُ نساء يمكنهن عمل مثله . لكن الجواهرى المعروف ، لم يعرف أن النسوة الثلاثة ، اشتركن معاً فى صنع هذا الخاتم . أما مالم تعرفيه حتى الآن ، لا أنت ولا الجواهرى ولا كُلُّ الذين استفسرتِ منهم عن النقش الذى بباطن الخاتم ، فهو أنها كتابةٌ سومرية قديمة .. فقرةٌ من ترنيمة عشتارية مندثرة، تقول ما ترجمته :

اجعلنى وحدى كخاتمٍ على قلبك ، لأن المحبة قوية كالموت .

أَتُرَاكِ فهمتِ الآن ، سِرَّ الألم الذى يعتصرُ جَدَّك كلما وقعت عيناه على الخاتم .. ستفهمين ذلك أكثر ، مع رسائلى التالية .

سأكتب لك كلما سنحت لى الفرصة . ويوماً ما سنلتقى .. ما أشد لهفتى إلى هذا اليوم . غير أنه لابد أولاً ، من إشارةٍ تأتى مبشِّرة بإمكان التقائنا .. إشارةٍ لن تأتى ، إلا منك .. إشارةٍ تدلُّ على خروجك من السَّرَبِ المظلم . تدلُّ على أنك نفضتِ عنكِ غبارَ القرون الماضية، وطهَّرت روحك من الدَّنس المورَّث للإناث ، ونزعتِ من قلبك الأشواك التى انطبخت بدمك .. إشارةٍ إلى أنك تأهلتِ لأن تكونى ، حقاً : أنثى مُقَدَّسة .

رســـالة

يا ابنتى ،

أكتب لك لحظةَ الشروق ، لحظةَ إشراق شموس الباطن فى نفوسنا .. أكتب لك ، وأمامى سَهْلٌ ممتد ، نهاياته مفتوحة على سلسلة جبال تلامس ما تبقى من ظلام الليلة الفائتة ، وما لم يتفرَّق بَعْدُ من السُّحُب . يبدو ذلك كله من بعيد ، مختلطاً ، وكأنه كتلةٌ واحدةٌ من المادة الأولى التى تشكَّل منها العالم .. مختلطاً ، وكأنه المعانى البكر ، التى لم تُنحت لها ألفاظٌ بعد .

لا أعرف ما الذى دعانى لأكتب لك بالعربية ، سألت نفسى الأيام الماضية ، بعد رسالتى الأولى إليك .. هل استلمتها ؟ آهٍ لو وقعت رسائلى فى يد جَدِّك العتيد . بالمناسبة ، لم أعد اليوم حانقةً عليه مثلما كنتُ فى الماضى ، بل أكاد اليوم أشفق عليه ، وإن كان هو لايشفق على نفسه . مسكين . مسكينٌ فى جبروته الموروث ، وجبارٌ بمسكنته التى لايدركها ! هل تعرفين من أين أتت كلمة (مسكين) فى اللغة العربية ؟ اللغويون المسطَّحون يظنونها مشتقةً من السكينة ، من السكن .. والحقيقة أنها مشتقةٌ من (الكين) الذى هو : باطن فرج المرأة !

دعينى أحدثك اليوم عن اللغة ، العربية ، أعرف أنك تفضلين القراءة بالفرنسية ، مع أنك تتقنين الإنجليزية والألمانية (وأعرف أن زوجك **عبده** لايتقن أية لغة أجنبية) .. عبده ، أىُّ اسم هذا ؟ كيف لم تفكِّرا فى تغييره ؟ المهم ، أنا مثلك أحبُّ الفرنسية بموسيقاها الداخلية العميقة ، وقدرتها على صياغة الحلم دون أية ادعاءات بقُدسية أصولها ، مثلما فعلت بعضُ اللغات التى اخترعها البشر . نعم ، الفرنسية

اختراعٌ بديع . انظرى للإيقاع الصوتى المتماوج ، فى الكلمة التى يعبِّرون بها عن الحنين: نُوسْتَالجى .

عندى حنينٌ جارفٌ إليك يا ابنتى ، حنينٌ إلى سماع نطقك الطِّفلى بالألفاظ الفرنسية ، والعربية . وحيرتك وأنت فى السادسة من عمرك ، أمام كثرة المترادفات فى اللغتين .. كان زمانُنا معاً ، زَمَناً جميلاً . أوتعرفين ، لقد قضيت عدة أيام غائبةً عن الوعى فى مستشفى ، لما انتزعك جَدُّك منى بعنف ، عقب وفاة والدك .. كان عنُفه معى آنذاك أصيلاً ، عنفاً ذكورياً أصيلاً ! لقد رفض أن أكون بالمنزل لأتلقَّى العزاء فى زوجى ، استعان بصدمته فى وفاة ابنه ، وبكل قواه المستمدة من بدلته المزدانة بالنياشين العسكرية .. العسكرية ، سوف أحكى لك يوماً، كيف ساهمت العسكرية فى إزاحة الأنثى المقدسة من عرش الألوهية ، وكيف حَوَّلت العالم إلى ساحات للحرب والإبادة .

ما علينا من ذلك الآن ، ودعينى أحدِّثك عن اللغة .. العربية ، العجيبة ، المتفرِّدة ، التى قضيتُ من عمرى سنواتٍ طوالاً ، أتأمَّل بنيتها ، وتركيبها ، وعجائبها التى لاتنتهى . ومازلتُ أندهشُ من قدرتها الإشارية الفائقة ، ومن مقدرتها على الجمع بين الأضداد ! صحيحٌ أن اللغات كلها تحفل ألفاظها بفوارق بين الدلالة المعجمية والدلالة المجازية ، لكن العربية تنفرد بأنها تستخدم لفظةً واحدة للدلالة على الشئ ، ونقيضه ! مثل لفظة (الجون) التى تعنى الأبيض ، وتعنى الأسود .. ولفظة (القُرء) القرآنية التى جمعُها : قروء ، تعنى الحيض .. وتعنى الطهر من الحيض ! فتشير بذلك ، ضمناً ، إلى أن الحيض نجسٌ . مع أن الحيض ، كما ستعرفين فى رسالة تالية منى ، هو أول علامات القداسة الأنثوية .

فانظرى إلى **الدلالات** كيف صار بعضها فى اللغة العربية ، مضاداً لألفاظها ! .. اذكرُ أن الناس فى بلادك ، كانوا إذا أرادوا السخرية من شخص ، وصفوه بأنه (فالح) وإذا استخدموا وصف (فلاَّح / فلاَّحة) فالمراد إزدراء هذا الرجل أو تلك المرأة. مع أن الفعل (فلح) فعلُ مَدْحٍ ، والممدوحون فى القرآن هم : المفلحون !

وفى المقابل ، فالناس فى بلادك إذا أرادوا مدح الولد أو البنت ، قالوا : شاطر ، شاطرة . مع أن **الشاطر** فى الأصل ، هو الذى شطر على أهله وانفصل عنهم ، وتركهم مراغماً أو مخالفاً ! يقول ابن منظور فى **لسان العرب** ما نصه : الشاطر هو الآخذ فى نحوٍ غير الاستواء ، ولذلك قيل له **شاطر** لأنه تباعد عن الاستواء . ويقول الفيروزآبادى فى **القاموس المحيط** : الشاطر هو مَنْ أعيا أهله خبثاً ! .. وقد استخدم لفظ **الشاطر** دوماً ، لوصف قاطع الطريق ومَنْ انطحن ظلماً حتى اضطر للسرقة والنهب .

فتأمَّلى هذا الأمرَ العجيب يا ابنتى .

وكذلك ، فالناس فى بلادك إذا أرادوا الإعلاءِ من شخص وصفوه بأنه (ابن ناس) أو بأنها (بنت ناس) مع أن هذا التعبير ، ظهر فى الزمن المملوكى ، للسخرية العامة .. السخرية الشعبية غير المعلنة ، من هؤلاء الحاكمين الذين لا يُعرف لهم أصل ، ولا أب لهم ، فهم : أولاد الناس !

والناس فى بلادك ، يصفون الرجل الشاذَّ جنسياً ، بأنه **لوطى** نسبةً إلى النبى التوراتى (لوط) الذى كره أن يمارس الرجلُ الجنسَ الشاذَّ مع الرجل .. ثم مارس هو الجنس مع ابنتيه ، فى ليلتين متواليتين ، بعدما أسكرتاه ! لينجب هذا النكاحُ السفاح ، بحسب الرواية التوراتية ، المبتذلة ، اثنتين من كبريات القبائل اليهودية .

ومن عجائب **العربية** أن أصول مفرداتها ، كلها ، تأتى على صيغة الفعل الماضى . فإذا أردتِ الكشف عن أصل أية كلمةٍ عربية ، فعليكِ بردِّها إلى جذرها الموافق لصيغة الفعل (الماضى) فالإنسان يُكشف عنه بالجذر : أَنَسَ . والمحبة ، حَبَبَ . والجبروت والجبر والجبيرة والجبار ، أصلها جَبَرَ ! فالأصل فى كل شئ ، تَمَّ فى الماضى .. وكأن لاشئ (أصلى) يحدث فى الحاضر، أو سيحدث فى المستقبل .

ومن عجائب **العربية** الخفية ، أمرٌ لم يفطن له معظم أهلها، وسِرٌّ عجيب يرتبط بأصولها الأولى ، بأزمنة الأنثى المقدسة . ففى العربية اسمٌ **مفردٌ** لا يمكن جمعه ، واسم **جمع** لايمكن إفراده . المفردة التى لا تُجمع ، هى كلمة (**المرأة**) والجمع الذى لايفرد ، هو كلمة (**نساء**) .. فالمرأة ، أبداً ، واحدة . والنساء صورتها المتكثِّرة ، بلا إفراد . المرأة رَبَّةٌ فَرْدَةٌ ، والنساء مقدساتٌ كثيرات . كن بالأمس مقدَّسات ، ثم صرنَ (أو صار أغلبهن) اليوم، مثلما أُريد لهن : مُدَنَّسَات .. صرنَ خليطاً شائهاً يجمع بين القداسة الفطرية فيهن ، والدناسة المكتسبة لهن بحكم الثقافة السائدة فى بلادك .

ثم ساهمت اللغة ، وياللعجب ، فى إزاحة المرأة من علِّوها المقدَّس ، إلى موضعها المدنَّس ..
فاستُحدثت ألفاظٌ دالةٌ على معانٍ غريبة ، تمت استعارتها من ركام الحضارات المندثرة ! فاستعيرت مثلاً ، لفظة **بعل** للدلالة على الزوج ، وجعلوا للزوجة لفظة **حَرَم** .. فانظرى ، كيف جلبوا لوصف الزوج ، اسم الإله الذكر القديم ، الذى أزاح **عشتار** عن عرش الألوهية . ولم يصفوا الزوجة يوماً بأنها : بعلة ! وفى المقابل جعلوا الزوجة ، فقط ، هى **حَرَمُ** الرجل ؛ ولم يصفوا الزوج بأنه حَرَمٌ لزوجه .. للرجل الحرمة ، والحريم ، والحِلِّ والتحريم ، وصورة الله الذى ورد فى الخبر أنه خلق (آدم) على صورته .

للرجل فضلُ التفضيل الإلهى ، وحظُّ أُنثيين ، والحور العين فى وعد الجنة .. ولاشئ للمرأة حاملة الأجنة ، إلا الدعوة إلى الرفق بها ، ومن ثَمَّ الوصاية عليها ، والزعم بأنها فى الأصل معوجَّة !

ومن عجائب العربية ، أن مصادرها المسماة بالصناعية . مصادرها الدالة على الأمور الكلية الإجمالية ، جميعها مؤنثة ! انظرى كيف تلحق تاء التأنيث البهية ، بكل المصادر الصناعية : الألوهية ، الربوبية ، الإنسانية ، العالمية ، الوطنية ، الواقعية ، الرمزية .. بل وأكثر من ذلك، ما تفعله اللغة الفصيحة الأصلية ، الأصيلة ، من إلحاق التأنيث بالرجل ، إذا بلغ مرتبة عالية فيما يوصف به ! تقول العربية عن الرجل ذى العلم الكثير **علاَّمة** وذى الفهم العميق **فهَّامة** وذى النبوغ الفائق **نابغة** . بل وأكثر من ذلك فأكثر ، ما نراه فى اللغة الفصيحة إذا أرادت أن تجمع لفظ **الرجل** قالت (رجال) فإن كانوا رجالاً ذوى مكانة ، فهم **رجالات** .. ولا يُقال فى فصيح اللغة **رجالات** المؤنثة ، إلا للرجال ذوى المكانة العالية فى الجماعة !

وفى المقابل من ذلك ، نجح المتحدثون بالعربية .. وبخاصةٍ بلغاؤهم وشعراؤهم الرسميون ، فى طمس كل هذه الأسرار، والتشويش عليها . عندى على ذلك مثالٌ صارخٌ ، من شِعْر ذلك الرجل الذى تاخم ببلاغته حدود النبوة ، وتجرَّأ فى صَكِّ لقبه ، وتبجَّح الناسُ فقبلوا منه لقبه ، وأذاعوه بينهم بلا استحياء .. المتنبى !

كان هذا الشاعر البديع ، على الأرجح ، يحبُّ **خولة** أخت صديقه ومليكه **سيف الدولة الحمدانى** حاكم حلب .. فجأة ماتت خولة ، فرثاها **المتنبى** وهو فى العراق بقصيدة بديعة ، استهلها بقوله :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرَ أَبٍ

كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَـــبِ

فبدأ بكائيته على محبوبته ، بذكْرِ أقرب (الرجال) لها، و لم ينفرد كما هى عادة الشعراء ، بحزنه ، بل جعله بعضاً من حزن أخيها عليها . يقول :

أرَىَ العِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ

فكيفَ حالُ فتى الفِتيَانِ فى حَلَبِ

غير أن حزنه ، لوعةً على فراق المحبوبة ، مالبث أن غلب على روحه الشعرى . فهام المتنبى بأبياته

فى مفاوز الحضور الأنثوى لحبيبته الراحلة ، فأفردها عن غيرها من النساء، وخلع عليها ثوباً من بديع شِعْره ، بأن وصفها بأنها :

وَهَمُّها فِى العُلَى والمجْدِ نَاشِئَةً

وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِى اللَّهْوِ واللَّعِبِ

ثم انتبه المتنبى ، إلى أنه يجب أن ينطلق عن حِسٍّ ذكورى، وينطق بلسان معجبين ذكورٍ بشعره .. فنفى عن محبوبته الأنوثة ،

فى بيت فاجر من قصيدته ، يقول :

وإِنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أُنثى فَقَدْ خُلِقَتْ

كَرِيمةً ، غير أُنثى العَقْلِ والحسَبِ

ثم ارتبك ذهنه الوقَّاد ، وبحكم الحب ، خجل مما قاله ، فألحق بالبيت بيتاً آخر يقول :

وإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الغَلْبَاءُ عُنْصُرُهَا

فَإِنَّ فى الَخْمرِ مَعْنىً لَيْسَ فى العِنبِ

.. أرايتِ يا ابنتى ، كيف انداحت عبقرية المتنبى الشعرية ، فى المتاهة الفاصلة بين صورة الأنثى فى شعوره ، وصورتها فى أذهان معاصريه . لكنه للحقِّ، انتبه للأمر فقال فى قصيدةٍ أخرى من مرثياته لخولة ، أبياتاً صارخة .. مباغتة .. صادمة لأهل زمانه :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا

لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرجَالِ

ومَا التَّأْنِيثُ لاسِمِ الشَمْسِ عَيْبٌ

ولاَ التَّذكيرُ فَخْـــــرٌ للهِلاَلِ

.. يا ابنتى ، أودُّ لو طال حديثى لك عن أدب العرب ، غير أنى أدركنى التعب . ويوماً ما ،

سنجلس طويلاً لنقرأ معاً نصوص العربية ومتونها ، بعيون أخرى غير العين الوسنانة التى يقرأ الناس بها . ولسوف تدركين أن روح اللغة العربية صار اليوم مشوَّشاً . فإذا صَحَّ أن **اللغة** ترسم **العالم** فى أذهان المتحدِّثين بها .. فإن الناس فى بلادك مُشَوَّشون .

رســـالـــــة

(قطعة ممزَّقة)

.. قلتُ له إن الإسلام واليهودية دينٌ واحد ، روحٌ إبراهيمية واحدة تجلَّت مرتين ، على نحوين : بدائىٍّ توراتى ، وبليغٍ قرآنى . فانزعج وأمطرنى بوابلٍ من النصوص الدينية ، المؤكِّدة أن الدين الحق هو الإسلام ، وما عداه تمهيداتٌ له ، أراد الله بها أن يهيِّئ البشرية لآخر الديانات .. وكان ينطلق كعادته ، من الرؤى النمطية القائلة منذ مئات السنين ، بقرب انتهاء العالم ! حاولت أن أُفهمه، مستعينةً بنصوصٍ دينيةٍ أخرى ، عكس ما يعتقده . فصمَّ أذنيه عن كل ما أقول ، واتَّهمنى بالكفر ، وبالتلاعب بكلام الله !

من يومها ، لم أعد أخوض معه فى أى حديث من هذا النوع . فقد أدركتُ أنه لا فائدة من كلامٍ لايُسمع ، ومن وعيٍ بلغ من التخلُّف أن اعتقد بإحاطته باليقين التام ، وبأن كل مايقع خارج معتقده هو ، إنما هو ضلالٌ مبين .

أما أبوك ، فقد كان دائماً حائراً .. كانت حيرته إنسانيةً، وبديعة . يومَ رأيته أول مرة ، جذبتنى إليه تلك الدهشة الدائمة بعينيه . عيناه كانتا واسعتين ، ودافئتين . حضنه أيضاً كان دافئاً، وحنوناً . آه .. قلمى يرتجف . فاعذرينى يا ابنتى . سأكمل رسالتى فى الصباح ، فلابد الآن أن أخلو لنفسى ، وأغسلُ روحى من كل ..

رســـالـــة

صباح الخير يا حبيبتى .. يا ضَنَاى ! اليوم فقط ، انتبهت لهذا التعبير الذى تستخدمه النساء فى بلادك (أو بالأحرى : كنَّ يستخدمنه) للإشارة إلى ذريتهنَّ . فالولد والبنت ، كلاهما ، عند الأم : ضنى ! وليس من عادة الرجل أن يصف ذريته ، بهذه اللفظة المليئة بدلالات المعاناة والألم والشفقة ، فالأمُّ وحدها هى التى تُضنى .. وهى وحدها التى تعرف ، بطبيعتها الأصلية ، معنى الأمومة . فالأمومةُ يا ابنتى طبيعةٌ ، والأبوة ثقافة . الأمومة يقينٌ ، والأبوة غلبُة الظن. الأمومة أصلٌ فى الأنثى ، والأبوة فرعٌ مكتسب .

آه يا ابنتى ، لقد أصبحتُ اليوم من نومى ، فوجدتُ روحى ملفوفةً بهذه الأفكار ، بعدما قضيت اليومين الماضيين ، مشغوفةً بما ذكرته لى فى رسالتك الأخيرة ، من أنك تفكِّرين فى الرحيل عن بيتك ، وعن بلادك كلها .. بالمناسبة ، أعجبنى تعبيرك : **أودُّ هَجْرَ الدُّورِ الغابرة** ! بدا لى كاستهلالٍ بارعٍ لقصيدة بديعة . من أين لك يا حبيبتى هذه البلاغة العربية .. أوتعرفين ، كان أبوك بليغاً فى تعبيراته ، لكنه كان ينشغل بالصيغة اللغوية أكثر من مضمونها . وكان يرفض بحسم ، تعلُّم أية لغة أخرى ! كان يقول ما معناه : أنا ولغتى جوهرٌ واحد ، لاينفصم . وكان يكتبُ الشعر خلسةً ، ويكتمه، ولعلنى الوحيدة التى رأت قصائده .. مازلتُ محتفظةً بها ، يوماً ما سنقرأها سوياً .

المهم ، ما تودِّين القيام به من (هجر الدُّور الغابرة) بحاجة إلى مزيد تفكير . بالطبع سوف أدعم أى قرارٍ تنتهين إليه، مهما كان . ولكن رجائى الوحيد الآن، أن تتريثى قليلاً قبل عقد العزم، لتتجنَّبى الندم .. فيكفينا ما لدينا من تراث الندم .

على أنى لا أقصد بذلك إخافتك من المستقبل ، بل أحبُّ أن تكونى جسورةً . وأنا أعرف أن مفارقة بيتك الحالى وهجرانك لبلادك ، تلزمه جسارةٌ ، وأن البقاء فيها تلزمه جسارةٌ أعظم . وفى كل جسارة ، خسارة .. وفوز ! فتدبَّرى الأمر قبل حَسْمه . فإن كان قد انحسم عندك ، فلا تتردَّدى .. وفرِّى إليك ! ولسوف أمنحك بعض الأجنحة القوية ، المعينة على التحليق .

عندى خبرٌ جميل ، مساءَ أمس أبلغونى أن عشرين جامعة دولية من اتحاد الجامعات السبعين ، قررت تدريس نظريتى فى **دليل التحليل** كدرسٍ إلزامىٍّ لطلاب الدراسات العليا ، بدءاً من الموسم الدراسى القادم . إن لى كما تعرفين كتاباً بهذا العنوان ، ونشرت فى هذا الموضوع عدة بحوث ، طالما لقيت استحسان المتخصصين فى التاريخ القديم والأنثروبولوجيا وأصل الديانات ، مع أن نظريتى فى

الأساس هى مدخل لفهم الأساطير . ومادمتِ ، كما أخبرتنى ، تقرأين هذه الأيام أسطورة الخلْق البابلية **الإنوماإيليش** التى تعنى حرفياً : عندما فى العلا (وأفضِّل أن أترجمها : حدث فى الأعالى) فلسوف ألخص لك الفكرة التى أقمتُ عليها نظريتى فى دليل التحليل :

تعرفين يا ابنتى ، أن ما بأيدينا اليوم من أى أسطورة كبرى، هو صيغةٌ واحدة فقط لها . صيغةٌ وصلت إلينا عمداً .. أو صدفةً ، بعدما صاغها أحدهم ، ثم اكتشف صيغتها هذه ، أحدُ الآثاريين . غير أن الأسطورة ، الواحدة ، لها مالا حصر له من صياغات ، تتالت خلال تاريخ الجماعة التى ابتدعتها ، وتنوَّعت فى الرقعة الجغرافية التى عاشت فيها هذه الجماعة . فمثلاً ، قد تكون أشهر ملحمة أسطورية فى تاريخ الإنسانية ، هى الإلياذة . غير أن ما نعرفه الآن تحت عنوان (الإلياذة) ليس هو الأسطورة ذاتها، وإنما نعرف صياغة أريستارخوس (217-145 ق.م) التى هى استدراكٌ على صيغة النص الذى جمعه لأول مرة **زينودوتوس** أمين مكتبة الإسكندرية القديمة ، من الشذرات المروية عن الشاعر اليونانى الجوال ، الأعمى ، المسمى هوميروس (هذا إن صَحَّ أصلاً ، وجود مثل هذا الشاعر) .

فإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى مئات السنين التى عاشت فيها **الإلياذة** فى وجدان الجماعة اليونانية المبكرة ، بصورٍ شتَّى تتغيَّر بتغيُّر السنين ، وتختلف باختلاف المدن اليونانية ، وتتأثَّر مفرداتها بحسب الواقع السائد . لخرجنا من ذلك ، بأن هناك مالا حصر من صياغات كاملة ، وشذرات ، وروايات ، تتوزَّع جميعها على أنحاء رأسية وأفقية ، أعنى تاريخية وجغرافية .. يجمع بينها فقط ، أسماء! فهناك : زيوس ، أخيل ، طروادة ، أبوللو ، هيلين ، هكتور .. وهناك بنية تراتُبية للأحداث ، يمكن تلخيصها فى سطور قليلة . لكن الأسطورة ذاتها ، أكبر من سطور ملخصها ، ومن شخوص أحداثها . الأسطورة خطابٌ ، مضمرٌ فى حكاية . وطريقة حكيها، لاتقلُّ أهميةً عن الرواية المحكية . كانت إحدى أستاذاتى تدرِّس لنا مادة (قراءات مسمارية) فكانت تقرأ لنا نصوصاً اكتشفتها هى ، وفكَّت رموزها ، وترجمتها إلى عدة لغات ، خلال خمسين سنة عملت فيها الأستاذة منقِّبة فى أرض العراق . وكنا فى قاعات الدرس ، نسمع منها عدةَ مراتٍ ، النصَّ ذاته ، بالاهتمام ذاته ! إذ كانت ساحرة الإلقاء ، مما تشعرين معه بأنكِ معها فى حَضْرةٍ مقدَّسة . كان ذلك فى القرن العشرين ، فما بال الأمر بالنسبة إلى أهل الحضارات القديمة ، الذين كانوا أقل منا تشتُّتاً وأكثر تركيزاً ، بحكم عالمهم الذى خلا من التدفق الإعلامى الذى يغمر زماننا . كان هؤلاء القدماء يجلسون فى المعابد أو خارجها (فى مناسبات خاصة) ليستمعوا بإنصاتٍ وخشوع ، إلى نصوص الأساطير . وفى هذه النصوص ، أيضاً ، تكرارٌ لبعض الأسطر التى يَرِدُ السطُر الواحدُ منها عشرات المرات ، متخللاً السياق ، على هذا النحو الوارد فى أسطورة **نزول إنانَّا إلى العالم**

السفلى وفقاً للنسخة (الرقيم) المحفوظة حالياً بمكتبة المتحف البريطانى بلندن، حيث كُتب ما ترجمته :

سيدتى هجرت السماء وهجرت الأرض ،

ونزلت إلى العالم السفلى .

إنانّا هجرت السماء وهجرت الأرض ،

ونزلت إلى العالم السفلى .

هجرت السيادة ، هجرت الملوكية ،

ونزلت إلى العالم السفلى .

هجرت معبدها فى الوركاء ،

ونزلت إلى العالم السفلى .

هذا البيتُ الشعرىُّ المتكرِّر ، نموذجٌ لما نراه بأشكال عديدة فى عدةِ نصوصٍ ملحمية . وقد حيَّرت هذه الظاهرة الباحثين ، ورجَّحتُ أنا فى رسالتى للدكتوراه ، أن **البيت** المتكرِّر فى نصوص الملاحم الأسطورية ، هو (بيت الترجيع) الذى تنشده الجماعة المستمعة ، بعد كُل بيت شعرى يتلوه **المنشد** الذى يتحلَّقون هم حوله ، فيكون هذا **الترجيع** مؤكِّداً للمعنى فى نفس السامع ، المشارك فى (الحكى) بترجيعه هذا البيت أو ذاك . فاستحضرى فى ذاتك هذا المشهد المهيب للتلاوة ، لتعرفى كيف كانت معانى النص الأسطورى تنتقش فى نفوس المستمعين ، فتتأكَّد المعانى عندهم ، بالتكرار و بالمشاركة الفعلية فى (الإنشاد) بالأداء الصوتى (ذاته) الذى يقوم به المنشد .. وهو الطقس الذى نراه ممتداً فيناً حتى اليوم ، فى حلقات الإنشاد التى تقيمها الطرق الصوفية التى ازداد انتشارها مؤخَّراً ، كمحاولة للهروب المؤقَّت من الهوس الذى يجتاح اليوم العالم .. وهو ما أسميه : الهروب من هوس المجتمع العام ، إلى هوس الجماعة الخاص .

المهم هنا ، أنه فى كل نصٍّ أسطورى ، تتضمن فحوى الرواية ويتضمَّن نظامُ الحكاية ، وعياً ما ، ينتقل بين جيلين ، ويتعدَّل بتعدُّد الأجيال . وفى كُلِّ صيغةٍ جزئيةٍ مفردة ، خطابٌ مضمرٌ ، ووعىٌ يختصُّ بزمان هذه (الصيغة) ومكانها .. وما (النسخة) التى وصلتنا ، إلا نمطٌ واحدٌ من أنماط (الوعى) الذى صاغته الأسطورة عبر تجلياتها الرأسية والأفقية . وسأعطيكِ أمثلة :

إن الصيغة التى نعرفها للإلياذة ، فى هذا النص المتداول الذى ألغيت لصالحه كل الصيغ الأخرى ،

تم إبرازه للوجود فى زمن مجد الإسكندرية ، التالى زمناً على بدء ظهور هذه الملحمة بأرض اليونان ، بقرابة ألف عام . وفى لحظةٍ تاريخيةٍ ما ، جلس مُبرز (الإلياذة) وسط كومة هائلة من الصِّيَغ والروايات الكاملة والشذرات والنتف والحكايات الشفاهية التى اختزنت فيه ، والصور الذهنية التى تشكَّلت فى عقله مع زمن السيادة الذكورية، والأدوات المعرفية واللغوية التى أُتيحت له ، والصبر الذى يلزم إنجاز العمل .. ومن ذلك كله ، أبرز نصَّ (إلياذته) التى محت (الإلياذات) الأخرى ، مع مَرِّ السنين . ولو كان بأيدينا **إلياذةٌ** أنجزها عالـــمٌ يونانى عاش فى أثينا قبل زينودوتس ، وثانيةٌ أبرزها كاهن عاش بعد أريستارخوس فى صقلية ، وثالثةٌ جمعها فيلسوفٌ رواقىٌّ يعيش بأطراف آسيا الوسطى ، ورابعةٌ صيغت فى بدء الزمن اليونانى يوم حكمت النساءُ اللواتى عُرفن قديماً باسم **الأمازونيات** .. وخامسةٌ دوَّنها راهب سريانى متأخِّر يعيش على تخوم الشام .. وسادسة ، وسابعة .. لكان لدينا مجموعة إلياذات هى أقرب ، فى مجملها المتنوع هذا ، إلى روح هذه الملحمة الأسطورية . وكلها ستحتوى على الشخصيات ذاتها، ولكنها (كلها) ستحتوى على صيغ للحكاية ، وأنماطٍ للحكى ، ورؤى للرواية ، ووعىٍ كلىٍّ بالعالم ، وآثارٍ للواقع المعيش ؛ بشكل مختلف ! ومن ثم ، فكل تحليل وتفسير وتأويل نقوم به اليوم لنصِّ **الإلياذة** إنما هو تحليلٌ وتفسيرٌ وتأويلٌ لنص **أريستارخوس** أو بالأحرى : لعقله ! وليس لملحمة الإلياذة (ذاتها) التى عاشت من قبله قروناً تنوعَّت فيها أشكالها وصيغُها ، رأسياً وأفقياً .

وهناك مثالٌ آخر أكثر وضوحاً ، لملحمة أقل شهرةً وأعمق دلالةً ! هى ملحمة **جلجامِش** التى نعرفها من خلال النص الذى اكتُشف فى مكتبة الملك البابلى **آشوربانيبال** حين وقع الآثاريون بعد حفائر ، على بقايا هذه المكتبة .. فماذا عن الأصل السومرى للملحمة ، السابق زمناً على **آشوربانيبال** بقرابة ألف سنة ؟

ثم وجدنا من هذه الملحمة نُسخاً أخرى ، فصار بأيدينا اليوم ثلاثُ صياغات لملحمة جلجامش . واحدة سومرية متأخرة، واثنتين من زمن الحضارة البابلية التى ورثت سومر . وفى النسخ الثلاثة ، اتفاقٌ شبه تام فى أسماء شخصيات الملحمة : جلجاميش ، عشتار ، إنكيدو .. ولكن هناك تفاوتٌ كبير فى الوقائع التى أوردتها الصيغ الثلاثة ، وأهمُّ منها : تفاوتٌ فى الصيغ وفى نظام الحكْى . بعبارة أخرى ، صارت لدينا (اختلاقات) فى القصة و (اختلافات) فى الصياغة، بما يناسب الفترة الزمنية والبقعة الجغرافية التى ظهر كُلُّ **نصٍّ** فيها .. ولاشك أن هناك صيغاً أخرى ، غير الثلاثة التى وصلتنا، تدوولت ودالت خلال آلاف السنين من حياة سومر وأكاد وبابل وآشور ، وخلال البقعة الجغرافية الواسعة الممتدة من

جنوب العراق الحالية إلى تخوم الأناضول وغرب بلاد فارس المسماة اليوم إيران .

لدينا إذن محض **نماذج** من الأسطورة ، أو الملحمة الأسطورية . فتعالى يا ابنتى ننظر فى (نماذج) من بعض (النماذج) التى بين أيدينا اليوم ، لنرى كيف تمت صياغة الوعى وإشاعة الفكرة، بخصوص أمر دقيق يظهره **دليل التحليل** الذى يقوم عندى ، على إعمال العقل فى الخبر ، بحسب تعبير ابن خلدون **!** ولسوف نرى ، كيف تحوَّلت تدريجياً صورةُ المقدَّس ، وتشوَّهت، وكيف صيغت صورة **الربة** التى هى **المثال الأعلى** للأنوثة ، والأنموذج الأول الذى تندرج تحته كل النساء .. وبيان الأمر ، كما يلى :

من حيث التاريخ المعروف ، لاخلاف فى أن المجتمعات التى أبدعت الملحمتين ، كانت فى فجر تحضُّرها تدين بعقيدة (الإلهة الأم) وتقدِّس الأنوثة ، وذلك للأسباب التى شرحتها لكِ فى رسالةٍ سابقة . ولاخلاف فى أن هذه المجتمعات تحوَّلت تدريجياً من الإيمان بالربة ، إلى الاعتقاد بسيادة الذكورة . والذكورة تعنى فى وعيهم المتأخِّر : الملك الذى يحكم فى الأرض، والإله الذى يحكم من السماء **!** وكلاهما عندهم ذكر . فكيف يمكن إفساح المجال لإعلاء هذا الذكر ؟ .. بتهوين الإنثى .. بإهانتها **!** انظرى إلى هذه الأبيات من ملحمة **جلجامِش** حيث يَرُدَّ الأخير على طلب **عشتار** الزواج منه ، ويردُّها زاهداً فيها .. فى النصِّ البابلـــى ، ترجوه عشتار :

تعال يا جلجامش وكُن حبيبى
هبنى ثمارك هديةً
كن لى زوجًا وأكون زوجةً لك

فيردُّ جلجامِش :

وأىُّ حبيب أخلصت له الحب إلى الأبد ؟
وأىُّ را عٍ لك أفلح معك ، على مَرِّ الأزمان ؟
تعالى أفضح لك حكايا عشاقك :
تموز زوجك الشاب ضَحيتِ به ، ثم بكيته !
طائر الشقراق الملون ، أحببتِه
ثم ضربته فكسرت له الجناح .

وأحببتِ الأسد، الكامل القوة

ثم حفرت له مصائد سبعاً .

وأحببتِ الحصان السَّبَّاق فى المعارك

ثم قدَّرتِ عليه السوط والمهماز والأحزمة .

وأحببتِ راعى القطيع

ثم ضربته فمسخته ذئباً .

وأحببتِ ايشولانو بستانى نخيل أبيك

ثم ضربته فمسخته خلداً .

فإن أحببتنى ، ألا يكون نصيبى منك ، كهؤلاء ؟

فى هذا النص الداعر ، نرى الأنثى تَطْلُبُ فلا تُطْلَبُ ، ترجو الوَصْل فتُرفض ! ويشتمل بيان الرفض ، على تبيان مثالبها .. أمرٌ مضحك ، فى ثقافةٍ بدأت تاريخها بتقديس الأنثى ، وظلت تصنع تماثيل الإلهة ، المسماة اليوم عند الآثاريين **الدمى العشتارية** لثلاثين ألف سنة من فجر الحضارة الإنسانية .

من هنا نرى يا ابنتى ، إن (فهم) هذا النص غير ممكن بالمــــرة ، بعيداً عن الأدلة التى يقدمها **تحليل** الواقع الذى أبرز النص ، و **تحليل** التحوُّلات التى دلَّت عليها الشواهد الأثرية ، و **تحليل** ايحاءات السياق وأثرها فى المستمع .. وبعيداً عن ذلك كله ، فكل فهمٍ للأسطورة سيكون لامحالة قاصراً .

إن **دليل التحليل** مؤشِّرٌ حاكمٌ على قِدَم أو حداثة (الصيغة الأسطورية) فى هذه الحضارة أو تلك . أعنى القدم والحداثة النسبية ، إذ لايمكن بحالٍ من الأحوال أن يعطى النص (المبكر) صورة ازدراء **الأنثى** التى كانت (مبكراً) معبودةً ومقدسة . فى الوقت الذى يمكن معه للنصِّ (المتأخر) أن يخلع على الرجل كل قداسة ، بما فيها قداسة فعل الإنجاب ! وأنا أشير هنا ، إلى ما ورد فى الأساطير اليونانية (المتأخِّرة) من أن كبير الآلهة **زيوس** أنجب مرتين ! مرةً لما التقط جنين ابنه **بروميثيوس** من بطن أمه التى تفتَّتَتْ إلى ذرات ، حين ظهر لها **زيوس** فى صورته كمرسل للصواعق ، فالتقط الجنين وشقَّ فخذه وأودعه فيه ، حتى اكتمل نموه ! ثم وُلد **بروميثيوس** من فخذ أبيه .. ومرة ثانية ، لما ابتلع **زيوس** أُمَّ الربة **أثينا** وهى حامل بها ، فاكتمل نمو الربة فى جسم أبيها ، وجاء وقت ولادتها وهى مستقرة فى دماغه ، محدثة صداعاً له ، فجاء **هيفاستوس** حَدَّاد الآلهة ، ابن زيوس ، فضرب رأس أبيه بسلاحه الأسطورى ليخلِّصه من

الصداع ، فخرجت **أثينا** من الجرح فى كامل هيئتها ودروعها .. لتصير منذ لحظة مولدها من رأس أبيها : ربة الحكمة والحرب !

فانظرى يا ابنتى كيف يتجلَّى عهر الذكورية فى النصوص المتأخِّرة التى صاغت الفكرة . فكرة أن الرجل ، على المستوى المجازى ، يمكنه أن يحمل ويلد ! أو هو بعبارة أخرى : قادرٌ على إكمال فترة الحمل ، وقادر على فعل الولادة . بعبارة أخيرة : هو قادر على إتيان الأفعال التى بها تقدَّست المرأة ، ومن ثم فهو أصيلٌ فى القداسة !

ومن الناحية الأخرى ، تتجلَّى المرأة فى هذه الصيغ المتأخـــرة ، باعتبارها مدنسة . فهى **إنانًا** اللعوب التى لاتتوقف مغامراتها الحسية ، وهى **هيلين** التى تبدأ بسببها الحرب الضروس التى وصفتها (الإلياذة) فى السطر الثانى من مطلعها ، بأنها: ***أودت بحياة الآلاف من الأبطال*** .. مع أن السطر الأول من الملحمة ، يستنشد واحدةً من ربات الفنون قائلاً : ***احكى لنا يا آلهة الشعـــر ، غضبة أخيل المدمرة*** ! .. وانتبهى هنا ، إلى أنهم استدركوا الأمر الأصيل القائل بأنوثة ربات الفنون بأن جعلوا الإله الذكر **أبوللو** هو قائد هذه الربات !

وهكذا يدلُّ (التحليل) على المسار الذى اتخذته النصوص الأسطورية والمقدسة : البدء بالأنثى ، ثم تمجيد الرجل ، ثم خلع التقديس عليه ، ثم سلب القداسة عنها ، ثم تبرير غير الممكن لتسويغ تسمية الرجل ، زوراً وبهتاناً **الوالد** ثم إقرار ولايته على المرأة .. وأظنك تعرفين بقية ما حدث .

آه يا ابنتى ، لقد أطلتُ عليك ، مع أننى حرصتُ على الإيجاز .. ولعلنى أطلتُ ، لأننى اشتقتُ للحديث إليك ، شفاهةً . اشتقتُ حتى ماعاد فىَّ ، غير اشتياقى إليكِ .

رســالــــة

يا ابنتى الحبيبة ، ما كُلُّ هذه الحيرة التى تعصف بروحك ؟ أعرف أنك لم تنامى جيداً ليلة أمس .

قلبى حَدَّثنى بذلك ، ولذا أرقتُ معك حتى الصباح ، ووددت أن أضمَّك لحضنى ، وأمسح بيدى على رأسك لأزيل عنها الأوهام .. الأوهامُ ، أكثرُ ما كنتِ تعيشين به ، وله . ولستِ فى ذلك وحدك ، يا ابنتى ، فهى صفة فى الإنسان ! يجهد روحه ، ويكذِّب عقله ، حتى إذا أُنْهِكَ .. استسلم للأوهام ، ونام . غير أن روحه تعود فترفرف، وعقله لاتكفُّ ومضاته المقلقة لاستنامة الوهم ، فيقلق ، ويأرق ويغرق فى بحر الحيرة .. مثلما كان حَالُكِ الليلةَ الفائتة .

لن أنصحك بشئ ، فلاشئ أثقلُ على النَّفْس الحرَّة ، الحرَّى ، من تلقِّى النصائح . وإنما سأرجوكِ ، أن تسأليني . اسأليني يا ابنتى ، لأن السؤال هو الإنسان . الإنسان سؤالٌ لا إجابة . وكل وجودٍ إنسانىٍّ احتشدت فيه الإجابات ، فهو وجود ميت ! وما الأسئلةُ إلا روحُ الوجود .. بالسؤال بدأت المعرفة ، وبه عرف الإنسانُ هويته . فالكائنات غير الإنسانية لاتسأل ، بل تقبل كل ما فى حاضرها ، وكل ما يحاصرها . الإجابة حاضرٌ يحاصر الكائن، والسؤالُ جناحٌ يحلِّق بالإنسان إلى الأفق الأعلى من كيانه المحسوس. السؤالُ جرأةٌ على الحاضر ، وتمرُّدُ المحاصَر على المحاصِر .. فلا تحاصرك يا ابنتى الإجابات ، فتذهلك عنك ، وتسلب هويتك .

كانت إحدى أستاذاتى الطاعنات فى العمر ، تردِّد دوماً وبلا ملل : السؤال نصف الإجابة ! وأوصتنى مرة ، بل مرات ، أن أحتفى بالسؤال الجيد . فالأسئلة الجيدة نادرةٌ ، ويجدر بنا الاحتفاء بها . كانت تضيف بحكمة امرأةٍ مقدَّسةٍ تجاوزت ثمانين عاماً من عمرها ، ما معناه أن السؤال مهما كان جيداً ، فلن يلغى حقيقةً قاسيةً تقول : من الأسئلة ، ما ليست له إجابات ! وظلت تؤكِّد لنا ، قبل موتها بشهور : الإجابةُ مضى وقتها ، انتهت أزمنتها ، ونحن اليوم فى زمن التساؤل ! .. ماتت الأستاذة على مشارف التسعين من عمرها ، ويقال إن آخر ما همست به على فراش الموت : كيف يمكن صياغة كل هذه الأسئلة ؟

وأنتِ يا ابنتى معذورة فى حيرتك ، وفى تردُّدك عن طرح السؤال .. فقد نشأتِ فى بلاد الإجابات ، الإجابات المعلَّبة التى اختُزنت منذ مئات السنين ، الإجابات الجاهزة لكل شئ ، وعن كل شئ . فلا يبقى للناس إلا الإيمان بالإجابة ، والكفر بالسؤال. الإجابة عندهم إيمان ، والسؤال من عمل الشيطان ! .. ثم تسود من بعد ذلك الأوهامُ ، وتسودُّ الأيامُ ، وتتبدَّدُ الجرأةُ اللازمة والملازمة لروح السؤال .

لكنكِ الآن يا ابنتى ، خرجتِ عن هذا الإطار ، وتحطَّمت من حول رأسك هذه الأسوار ، وبلغتِ رشدك .. فإن شئتِ فارجعى إلى ما كنتِ عليه ، وكونى ما أراده جَدُّك وما يريده زوجك وما يريحكِ

على فراش أوهام الناس . أو كونى أنتِ ، فاسألى .. اسألى نفسك ، واسأليني ، واسألى الوجود الزاخر من حولك ، عن كل ما كان ، وعما هو كائن ، وعما سيكون . عساكِ بذلك أن تعرفى ، كيف كان ما كان ، ولِمَ صار العالــمُ إلى ماهو عليه الآن .. تعرفين ، فتسألين . ثم تسألين ، فتعرفين .. فتكونين أنتِ ، لا هُم !

رسالــة

(ممزقة من أولها وآخرها)

فملاحظتك يا ابنتى فى محلها ، ونصُّ اغتصاب **إنانَّا** الذى تسألين عنه ، نشره فى القرن الماضى **صمويل نوح كريمر** باحث السومريات المعروف ، عن لوحةٍ مسماريةٍ فريدة ، وردت فيها الواقعة كالتالى :

فى يوم من الأيام ، كانت الربة **إنانَّا** قد تنقَّلت عدة مرَّات بين السماوات والأرض ، فأدركها التعبُ وبلغ بها الإنهاكُ غايته، فتمدَّدت فى بستان ، لتستريح تحت ظلال شجرة السارباتو الوارفة ، فغلبها النوم . وكان **شوكاليتودا** صاحب البستان ، يرقبها من بعيد ، من بين فروع شجر السارباتو. فلما رآها منهكةً ، وقد لعب الهواءُ بثوبها ، فتعرَّى جسمها . تسلَّل إليها بحرص ، واقترب حتى تأكَّد من أنها راحت فى سُباتٍ عميقٍ ، من شدَّة التعب . فانتهكها جنسياً ، وهرب . ولما صحتْ **إنانَّا** من نومها ، نظرت إلى نفسها فى فزع ، فأدركتْ ما حدث ، وعزمتْ على الانتقام من هذا الرجل الذى اغتصبها بهذا الأسلوب المخزى ، وقررت أن تصطاده بأى ثمن . أرسلت الربة ثلاث كوارث على **سومر** الأولى ملءُ كل الآبار بالدم ، حتى فاضت مزارع النخيل والكروم ، كلها ، دماً . والثانية ، ريحٌ عاتية وزوابع مدمرة . والثالثة غير مؤكَّدة (لأن سطور اللوح المسمارى مهشَّمَة فى هذا الموضع) ومع ذلك كله ، لم تظفر **إنانَّا** بمغتصبها **شوكاليتودا** لأنه كان يذهب بعد كل كارثة إلى أبيه ، ليستشيره ، فينصحه الأب بالاختباء بين إخوته **ذوى الرؤوس السود** أى أهل سومر ، وأن يلازم مركز المدينة . وأطاع **شوكاليتودا** نصائح والده ، فعجزت **إنانَّا** عن الانتقام منه، ومضت باكيةً إلى مدينة **إريدو** مقر أبيها ،

إله الحكمة السومرى **إنكى** لتشكو له ما جرى معها .

تلك هى الوقائع يا ابنتى ، كما وردت فى النسخة الوحيدة المسمارية ، التى عُثر عليها . وكما ترين ، فإن هذه القصة الأسطورية (المتأخِّرة) تشتمل على دلالات .. منها تأكيد النسبة الأبوية (الحامية) للرجل ، حتى لو كان مخطئاً . فالأب هو الذى يحمى ابنه **شوكاليتودا** كل مرة ! ومنها أن الرجل بين إخوته (الرجال) سيكون آمناً ، حتى لو عمَّ الخرابُ العالــمَ من حوله ! ومنها الدعوة المفتوحة للاغتصاب .. فمادام الرجل (الأرضى) بمقدوره اغتصاب (الربة) والإفلات من العقاب . فلا بأس على أى رجل، إذا اغتصب أى امرأة ، شريطة أن يتدبَّر أمر إفلاته من العقاب ! ومادامت (الربة) كانت يوماً ما فريسة ، فكل صور الربة ، أى (النساء) هنَّ بطبيعة الحال فرائس ، يمكن لأى صيادٍ ماهرٍ قادرٍ على تدبُّرِ الأمرِ ، أن يظفر ..

رســالــة

أدهشنى يا ابنتى سؤالك ، وأسعدنى ، وعاد بى إلى زمن قديم .. ففى بدء حياتى ، سألتُ أولى أُستاذاتى على درب الوعى بالذات ، السؤال ذاته ! غير أننى سألتها آنذاك بالإنجليزية ، وجاءنى سؤالك صباح اليوم ، كأنك ترجمتِ إلى العربية سؤالى القديم : ***هل تبدَّدت دواعى تقديس الأنثى ، أم انطمرت ؟***

لن أنسى الومضة التى لمحتها بعين الأستاذة ، لما سمعتْ مِنِّى السؤال . ولو كنتِ معى اليوم ، لرأيتِ كم غمرتنى هذه الومضــة ، لما ورد علىَّ سؤالك فأدهشنى ، وأسعدنى ، وأعادنى لزمنى القديم .

سأردُّ عليك ، بعين ما ردَّتْ به الأستاذة .. قالت لى قبل أربعين سنة ، ما ترجمته : دواعى تقديس الأنثى ، وتأليهها ، قسمان . الأول منهما يرتبط بطبيعة الأنوثة ، وجوهرها . والقسم الآخر يرتبط بالوعى الفطرى للإنسان ، الوعى الذى لم يكن قديماً قد وقع بعد، فريسةً فى شباك المتلاعبين بالعقول .

فأما ما يرتبط بطبيعة الأنثى ، فمظاهره كثيرة .. منها **الحيض** ومنها **الولادة** ومنها **الاستدارة**

ومنها **التعهُّد** . وبيانها ، فى ارتباطها بالوعى الفطرى للإنسان ، كما يلى :

فى فجر وعىِّ الإنسان بذاته ، وبالعالم ، ارتبطت فكرة الوجود الحىِّ ، بالدم . فقد عرف الإنسان الأول ، أن هذا السائل الأحمر هو **السر** فى حياة كل حيوان وإنسان ، فمادام الدم يجرى فيه ، فهو حىٌّ . وإذا جرى منه ، ونزف بالكامل ، مات .. فالدُم سِرُّ الحياة . والدم فى الأنثى ، يفيض كل شهر وكأنه إعلانٌ دورى لامتلاكها سر الحياة. ولكِ يا ابنتى أن تتخيَّلى دهشةَ الإنسانِ الأول ، الذى كان يربط بين الدم والحياة حين يرى النساء جميعاً ، يحضن بانتظام .. فلا ينقطع حيضه ــن إلا فى شهور الحمل ، التى هى شهور الاستدارة الكبرى للمرأة ، الاستدارة المنبئة باللحظة الأشدِّ رهبة ، لحظة الولادة .

ولا تنسى هنا يا ابنتى ، أن الإنسان **الأول** فى أزمنة الحضارات **الأولى** كان يعتقد أن **الدم** هو السائل المقدس الذى يرقى لأن يُراق على مذبح الآلهة . ولئن كانت **الأنثى** تريقه من باطنها بانتظام ، كل شهر ، فهى بطبيعتها مرتبطةٌ دوماً بهذا الفعل المقدس ! .. ومن ناحيةٍ أخرى ، فالأنثى إذا راهقت البلوغ، استدار ثديها ليصير مورداً لسائل آخر مرتبط بالحياة. اللبن .

وبما لاحظه البشر قديماً من دواعى تقديس الأنثى : دَمُ الحيض .. استدارةُ الثدى والبطن .. الولادةُ .. دَرُّ اللبن .. تعهُّدُ المولود . بدأ النظر إلى الأنثى باعتبارها الكائن الغامض السح ــرى ، الذى هو مَحَلٌّ أسرار الحياة والوجود الدائمة ، وهو أيضاً محل شهوة الرجل الجنسية المؤقَّتة . بيد أنه سواءً تحقَّقت هذه الشهوة بالالتقاء بين الرجل والمرأة ، أو لم تتحقَّق ، ف إن سِرَّ **الأنثى** باقٍ على حاله ، ومستمرةٌ مظاهره : دَمُ الحيض ، استدارة الثدى ، التعهُّد الفطرى الحنون .

وهكذا أدرك **الرجل** أن دوره فى إتمام دائرة الوجود ، هو دورٌ ثانوىٌّ لا يتم إلا فى لحظة إطفائه الشبق ، ولا يدوم إلا لحظاتٍ قصارٍ يُفرغ فيها قطراتٍ بيضاء من خلاصة جسمه، دون أن يدرى كنهها ، لانشغاله ساعتها بالرعدة السحرية الناجمة عن ولوجه فى باطن المرأة .. ومن هنا رأت الإنسانية ، من قبل أن يتفاصح بعضُ أفرادها ، ويتفلسفون فيفسدون الأمور ، أن **الأُنثى** هى الأصل فى الكون ، و أنه من الممكن لها أن تُوجد الأشياء بغير ذكر، وتلك هى طبيعة **الربة** أو **الإلهة** . ومن الممكن أن يتم الأمر بمشاركة جزئية من الرجل ، الذى أنجبته من قَبْلُ امرأةٌ مقدسة . ليظل الأمر كله ، حتى مع لحظة المشاركة المحدودة هذه ، منوطاً بالمرأة ، التى هى صورة الربة فى الأرض .. فالعبادة للربة ، والقداسة

للمرأة ، والتبجيل للنساء .

والقداسة يا ابنتى فعلُ الجماعة ، لا الأفراد . فلا يوجد مقدسٌ فى ذاته ! لايوجد مقدَّسٌ إلا فى مجتمع .. وكلما امتدت جذور الجماعة فى التاريخ ، وانبسطت رقعتها الجغرافية ؛ كلما تكثَّفت مشاعر عندها التقديس ، وتأكَّدت لدى أفرادها قداسةُ هذا المقدَّس أو ذاك . ومع طول الأمد ، لاتصير قداسةُ هذا المقدَّس تأمُّليةً ، مثلما كانت أول الأمر ، وإنما تغدو بدهيةٌ .. موروثةٌ .. راسخةٌ بثِقَل ثقافة الجماعة .

وما جوهر القداسة إلا إيغالٌ فى التبجيل ، فهى أقصى درجات الاحترام والإعلاء .. وهى غير الإيمان ! فالإيمان فى أساسه دينىٌّ ، يقوم على الغيب ، والعقل عِقَالٌ له . أما التقديس فأساسه تأملىٌّ ، يقوم على التحقُّق من عمق ورِفْعة المقدَّس . ومن هنا يقال مثلاً ، إن العمل مقدَّس .. والزواج مقدَّس .. وهذا البناء أو الحجر مقدَّس .

ثم خلطت الإنسانية بين القداسة والدين ، ورفعت المقدس إلى مرتبة الإيمان ، فألغت حكم العقل فيه .. خاصةً بعدما استسلمت مصر القديمة لدغدغة الانهيار ، واجتاح العالم القديم فكرُ أصحاب الموجة الأولى ، اليهود ، الذين وصفوا مكانهم الموهوم بأنه : قدس الأقداس ! وربطوا بينه وبين الرجل بالذات ، الرجل الكاهن ، بقولهم : ***الكاهن الأعظم يخلع رداءه قبل أن يدخل قدس الأقداس*** .. هه ، الكاهن الأعظم ! وكأنه من الطبيعى أن يوصف الرجل بالكهانة ، بعدما اندثرت عشرات الألوف من السنين التى لم تعرف فيها الإنسانية ، إلا الكاهنات . فالكهانة كانت فى فجرها الأول أنثوية ، ولو سمع واحدٌ من أهل العصور الأولى كلمة **الكاهن** مذكَّرة ، لغرق فى ضحكه .. وعَدَّ وصفَ الرجل بالكهانة ، مزحة سخيفة .

المهم ، أن النصوص المصرية والنقوش السومرية المتأخرة والكتابات التوراتية الأولى ، رفعت (المقدس) الذى هو الموضع والكائن الأرضى ، إلى مرتبة (الإلهى) الذى يستوجب الإيمان ، فكانت بذلك ، تسير بالإنسانية فى عكس الطريق الذى كانت تسير فيه . ففى البدء الأول ، انتقل الوعىُ الإنسانى من الأعلى (الربة/ الإلهة) إلى الأدنى (الأنثى المقدسة / المرأة) على نحوٍ تأمُّلىٍّ مرهونٍ بالتعقُّل . فظل الأمر سائداً لزمنٍ امتد ما بين ثلاثين إلى خمسين ألف سنة . وقد دَلَّت الاكتشافات الأثرية ، على أن أولى مظاهر **الدين** كانت مرتبطة بإعلاء الأنوثة، وكانت أولى الآثار الباقية من عصور الإنسانية الأولى ، أعنى رسوم الكهوف ، عبارة عن صور بدائية للأشياء تتخلّق ، على أبعاد متساوية ، بصورة امرأة حُبلى !

وكانت أولى التماثيل التى صنعها الإنسان قبل ثلاثين ألف سنة ، عبارة عن دمًى لامرأةٍ حُبلى . و كانت أولى أشكال **الديانة** فى الحضارات القديمة ، كافة ، تقوم على عبادة الربة والألوهة المؤنثّة . . وفى الثلاثة آلاف سنة ، الأخيرة ، صار الوعىُ الإنسانى ينتقل فى الطريق المعاكس ، من الأرضى الأدنى (الرجل/ السيد) إلى السماوى الأعلى (الرب / الإله) ومن هنا جاءت فكرة أن الملك ابن الإله ، وأن الحاكم ظل الإله ، وأن الله خلق آدم (لا حواء) على صورة الرحمن !

وبالطبع ، فدواعى تقديس الأنثى لا تزال على حالها .. فلا تزال المرأة تحيض ، وتستد ي أعضاؤها ، وتلد ، وتتعهَّد . غير أن الوعى الإنسانى المتأخر زمناً ، أعنى الممتد خلال الثلاثة آلاف سنة الأخيرة ، بلغ فيه العهرُ الذكورى من العتِّى والمخاتلة ، بحيث صار ينظر لدواعى القداسة فى المرأة ، على أنها علامات الدنس !

وبالطبع ، فقد اتَّخذ هذا التحوُّل زمناً ، تَمَّ خلاله الانتقالُ التدريجىُّ الذى وصفته لكِ فى رسالةٍ سابقةٍ ، مع جدلية (الحيازة/ الأسرة / الحرب) لينتهى الأمر فى الألفىْ سنة الأخيرة ، إلى الاعتقاد بدنس المرأة ، لعين الأسباب والدواعى التى تقدَّست بها الأنثى ، وأوُّلها الحيض . ولكن لا حظى هنا يا ابنتى ، أن ألفىْ عام لا تمثل غير **لحظة قصيرة** من عمر الإنسانية التى امتدت حياتها على الأرض مئات الألوف من السنين .. غير أنها كانت لحظة تحولٍ تدريجىٍّ بطئ ، بدأ باندثار الروح الأنثوى للحضارة المصرية القديمة ، وتجلَّى فى صياغة الأدبيات السومرية المتأخِّـــرة والمدوَّنات التوارتية المبكِّرة ، واكتمل مع الاجتهادات المصاحبة للانتقال التدريجى للسلطة . وكلها تحوُّلات ، ظهر معها الزعم بأن **الإله الذكر** أزاح الربة ، وبأن الله (رجل) خلق آدم على صورته ثم استل حواء من ضلعه الأعوج ، وبأن رمز الأنوثة هو حواء **المستلَّة** المتحالفة مع الشيطان لإخراج الرجل من الجنة ، حواء الناقصة المدنَّسة كل شهرٍ بدم الحيض ، حواء التى تبجَّحوا فزعموا أن الله أرادها وعاءً للبذرة التى يلقيها الرجل بباطنها ، حواء التى خُلقت لإطفاء شهوة الرجل مالم يعفَّ ويتنسَّك ويكون من الربانيين ، حواء التى لا مكان لها فى الحضرة الإلهية إلا على سبيل الاستثناء والندرة والتجلى الأنثوى فى صورة ذكورية ، حواء التى لا تكف فى زعمهم عن ملء العالم فتنةً واضطراباً وتشويشاً لعقل الرجل .. حواء المدنسة أبداً !

وهكذا انطمرت قداسة الأنثى ، بالدناسة التى ألحقتها بها (خاتمة) تحوُّلات الألفىْ عام الأخيرة.. فصار أمرُ المرأة المعاصرة ، خليطاً من قداسةٍ أصليةٍ فيها ، حظيت باعتراف البشرية لعشرات الألوف من السنين .. ودناسةٍ مكتسبةٍ بفعل تآزر الثقافات ، وصمها بها فى القرون الماضية القريبة ، المتلاعبون

بالعقول .

.. وهذا يا ابنتى إجمالٌ ، وللأمر تفصيلٌ يطول .

رســالــة

مالكِ يا ابنتى ؟ قلبى يحدثنى بأنكِ مضطربة ، وبأنك أرقتِ الليلة الفائتة . لاتستسلمى يا حبيبتى لأحزانك ، فلا شئ يهدُّ الأركان ، مثلما يفعل طغيانُ الأحزان .. وأنت يا حَبَّةَ القلب، مازلتِ بعدُ صغيرةً على الحزن . فاطرحيه خلفك ، وفوِّتى منه ما استطعتِ . وقد نلتُ أنا منه ، نصيبنا نحن الإثنتين ، وزيادة . والأحزان يا ابنتى لاتنتهى ، فتعالى نضمُّها لنحتويها ، فلا تحتوينا .. تعالى نصفو ، فنحلِّق فى أفق الفرح النبيل . آه ، لقد صحوتُ اليوم من نومى ، فرحةً . فعند الفجر ، حلمتُ بك تمرحين كطفلة فى مروجٍ مزهرة ، كانت ابتسامتك تملأ الكون .. اشتقتُ كثيراً لابتسامتك ، ولصفاء عينيك الواسعتين .

فى القرية المجاورة طفلةٌ ، تذكرنى بك وأنت فى الخامسة ، عيناها صافيةٌ مثلك ، أعطيتها قبل شهرين دميةً ، فاحتضنتها بالشغفِ الذى كنت تحتضنين به عرائسك . أمها أخبرتنى أنها تنام كل ليلة، والدمية فى حضنها ، وأنها رأتها مرةً تحاول سِرّاً أن ترضعها ! وهذا يا ابنتى ، سِرُّ الأمومة الدفينة فى كل أنثى ، منذ لحظة مولدها ، حتى لحظة امتدادها فى الأنثى التى ستلدها بعد حين .. فتصبح أمومتها متعينةً ، بعدما كانت كامنة .

سأخبرك بسرٍّ عن أبيك ، لا يعرفه غيرى ، ولن يفهمه غيرنا . كان ، مادمنا معاً ، لا ينادينى إلا بكلمة واحدة : ماما ! تعرفين أنه نشأ يتيماً من جهة الأم ، وبالطبع ، لم يستطع جَدُّك أن يكون له أباً ، وأماً .. فجدُّك يخجل من الحنو ! معذورٌ ، فهو سليلُ أسرةٍ عريقة فى خدمة العسكرية ، أبوه وعمه كانا أيضاً ضباطاً ، لكنه بلغ من علو الرتبة (أعنى القطع المعدنية التى يضعونها فوق الكتفين) إلى ما لم يصل إليه أىُّ فرد من أسرته . وهو يعتقدُ أن كل ماهو أنثوىٌّ ، بما فى ذلك الأمومة ، خطرٌ على الروح العسكرية . هو لايعرف يا ابنتى ، أن فجر العسكرية ارتبط بالأنثى المقدسة والأم الأولى ، وأن جيوش

الحضارات القديمة ، كانت فى بدء زمن السيادة الذكورية تنطلق تحت راية الرَّبَّات ، لا الآلهة الذكور !
مصر القديمة ، جيوشها الأولى حاربت تحت راية الإلهة **سِخْمت** التى تتخذ فى الحرب صورة اللبؤة .
وكانت الإلهة **عشتار** الموصوفة بأنها : لبؤة إيجيجى (آلهة الأرض) هى الراية التى حاربت تحتها الجيوش البابلية . وعند اليونانيين القدامى ، كانت آلهة الحكمة والحرب ، هى الربة العذراء **أثينا** ذات الدروع ، ثم انفرد الإله الذكر **مارس** بالحرب .. تاريخٌ طويل من الاستلاب ! فالجيوش النظامية ، برزت فى تراث الإنسانية على أنقاض السلام الأنثوى ، الأول لما اتسعت رقعة **الأرض المزروعة** واتسعت **الأُسر** وبرز مفهوم **الحيازة.** إذ كل حيازةٍ تلزمها حمايةٌ وإرهابٌ للطامعين ، والإرهاب تلزمه آلاتٌ للقتل ويلزمه قتلةٌ محترفين . ثم تعدَّى الأمرُ درءَ الخطر ، إلى التهديد به والتلويح من بعيد .. وهكذا تغيَّر الحال ، من أزمنة قداسة المرأة إلى زمن السيادة الذكورية ، مع التفاعل التطورى بين الجوانب الثلاثة المشيِّدة للسلطة الذكورية : الحيازة الواسعة ، الأسرة الممتدة ، الجيش النظامى . فكلما ازدادتْ رقعةُ الحيازة ، ألـــحَّت الحاجة إلى اتساع الأُسر ، وإلى إرساء نظام للدفاع والهجوم. وكلما تضخَّم الجيشُ النظامى ، تأكَّدت أهميةُ القرابة وضرورةُ تنظيم الإنتاج الزراعى لتوفير قوت **العسكر النظاميين** الذين يعملون كقتلةٍ محترفين فى المعارك . ثم تحوَّل الأمر بالتدريج ، من خوض المعارك تحت راية الربة للدفاع عن الأرض والعرض ، إلى الحرب التوسعية لخدمة الملكية الذكورية وتأكيد حيازة الرجل وهرمية السلطة .. ويوماً من بعد يوم ، انزوت المرأة وبهتت صورها ، وتقدَّم الرجل وازداد بهتانه . انزوى السلم ، وسادت الحروب .

كان واحداً من بحوثى المبكرة ، يدور حول هذه النقطة ، وكنت قد نشرته آنذاك (بلغات عدة، غير العربية) تحت عنوانٍ أثار وقتها حفيظة الكثيرين : **الحرب وتحولات الأنوثة من المقدَّس إلى المدنَّس !** وهى التحولات التى رصدتُ بداياتها فى **سومر** القديمة ، الحضارة المجيدة التى انتهت نهاية رخيصة ، وربطت أدبياتها المتأخرة لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ، بين المرأة والأفعى والشيطان .. وهو ما تلقَّفته اليهودية من بعـــد ، وأذاعته فى (سفر التكوين) أول الأسفار الخمسة المسماة بالتوراة، وبالعهد القديم .. عهد الإله (يهوه / إلوهيم / الرب) للقتلة والفجرة وسفَّاكى الدماء ، الذين امتلأ سفر التكوين بحكاياتهم المريعة .

ومع أن **سومر** بدأ فجر حضارتها بعبادة الأم المقدسة **ننخرساج** إلا أنها انتهت بالاندثار ، بعدما وضعت قياد المجتمع بيد الرجال . ففى بدء الحضارة السومرية ، كانت قصة الخلق التى اعتقد بها الناس ، تبدأ من **تعامة** الأم الأولى التى خلقت كل الآلهة بباطنها ، بعدما خلقت لنفسها زوجاً هو مِمُّو (الماء

المالح) فأنجبت منه آبسو (الماء العذب) وآلهة أخرى كثيرة ، مالبثوا أن تناسلوا ، حتى امتلأ باطنها بمن تسميهم الأساطير السومرية : الصحب المؤلَّهين .. وبعد وقائع طوال من الحرب بين الآلهة ، دخلت **تعامة** الحلبة فغلبها حفيدها **مردوخ** ثم شَقَّها بهراوته العتيـــة ، لنصفين : السماء والأرض .

وفى ظل هذا المعتقد ، كانت المرأة فى الزمن السومرى الأول ، مبجَّلةً فى المجتمع باعتبارها الأصل . وكانت المرأة آنذاك هى مصدر القيمة ، وعماد الأسرة ، وروح الجماعة .. ولقرابة ألفىْ عام من حياة **سومر** كانت المرأة تتزوج بأكثر من رجل ، وتتحكَّم فى أكثر الأشياء . حتى أصدر الملك السومرى **أوروكاجينا** سنة 2355 قبل الميلاد ، شرائعه التى تحرِّم على المرأة الزواج بأكثر من رجل واحد(●). ليمهِّد بذلك ، لتلك الشرائع الآسيوية التى أباحت للرجل، أن يتزوج بأكثر من امرأة !

وهكذا تزحزحت الإنسانية عن (الإنسانية) التى امتدت ثلاثين ألف سنة سابقة ، ليتم خلال ألف سنة تالية لاندثار سومر، عمليات معقدة تم خلالها الانتقالُ التدريجى من اكتشاف الزراعة إلى الاستيطان إلى الحيازة الزراعية الواسعة ، فتراكمت الثروة .. ومن الإتاحة الجنسية إلى الأسرة النواة إلى العائلة الممتدة ونظام القرابة ، فتأكَّدت هرمية السلطة .. ومن الحماية والدفاع إلى المبادرة لدرء الخطر ، إلى استدامة الجيوش الغازية وإعلاء العسكرية باسم حماية أمن وثروات الجماعة . وبهذه الجدلية الثلاثية ، انتقلت الإنسانية يا ابنتى ، من روح الحضارة الأنثوية ، إلى أزمنة السيادة الذكورية .. انتقلت من الولادة إلى الإبادة .

تلك هى الآفاق الحزينة ، التى انتهت إليها **سومر** فى أزمنة اندثارها . وقد عثر الآثاريون على لوحة سومرية ، رُسم فيها قبل تدوين التوراة بألف عام ، شيطانٌ وشجرة وامرأة تقدِّم لرجلها ثمرةً من الشجرة ! لوحة ترسم القصة التى بدأت منها التوراة ، ثم أمعنت بعدها فى تدنيس الأنثى وإعلاء الرجل والإله الذكر .. وحاول المصريون عن طريق **المسيحية** تصحيح مسار **اليهودية** ورَدِّها إلى المفهوم الأصلى للربوبية ، مفهوم الأنثى الخالقة من غير ذكر ، مفهوم الربة : إيزيس / مريم . فصارت هناك فرصةٌ لتصحيح مسار الإنسانية ، غير أنها كانت فرصة ضائعة ، إذ انقلبت المسيحية على ذاتها . وما نجحت ، من حيث نجحت اليهودية فى استلاب روحها منها ، لتتوارى العذراء / الوالدة ، ويبرز الذكرُ المولود .. فيتسيَّد المسيح على حساب الحضور المريمى ، مثلما تسيَّد حورس على حساب الحضور الإيزيسى !

وقد استغرق هذا **الاستلاب** والانقلاب للضدِّ ، قروناً تمتد من صياغة اللاهوت المسيحى فى

الإسكندرية ، بحسٍّ يهوديٍّ ذكورى ، على يد **آباء الكنيسة** .. إلى صياغة قصة الخلق بريشة **مايكل أنجلو** على سقف كنيسة سيستين بالفاتيكان ، حيث نرى الله الذكر ، يعطى إشارة بدء الخلق للإنسان الذكر . وكان فنان عصر النهضة **العظيم** من العهر الذكورى ، بحيث أخلى رسمه الحاكى بدءِ الخلق ، من أيةِ صورةٍ لأنثى !

ثم استتب أمر المسيحية فى **الفاتيكان** على نقيض ما ابتدأت به **مصر !** فمن الرهبانية والتقشُّف والشهادة ، إلى الفخامة والتذهيب والسيادة .. صارت المسيحية ملكوتاً فى الأرض، بدلاً من **ملكوت السماء** الذى دعت أولاً إليه . وصار رأسها هو (البابا) مع أنها كانت ديانة حقيقية ، بدأت أول الأمر بحقيقة الألوهة : الماما .

والنـــزوع العسكرى المتمثل ، يا ابنتى ، فى جَدِّك (الضابط العتيد) الذى هو خلاصة امتداد تراثه الطويل، المكتوب بيد ثقافات المنطقة ودياناتها . نزوعٌ غشومٌ ، يعرف أن روح **الأنوثة** خطرٌ داهم يهدِّد سيادة الرجل . بل يهدِّد بقوة ، تلك السيادة التى لم ينضج الرجلُ بعد ، ليستحقَّها . وقد استسلمت المرأةُ لسحقها، مغلوبةً على أمرها ، آلافاً ثلاثة من السنين .. آلافاً ثلاثة تشكَّلت خلالها هذه **البنية الاحتقارية** التى حدثتك عنها فى رسالة سابقة . البنية الخانقة السائدة فى المجتمعات القديمة ، بما فيها المجتمع الذى ولدتك فيه ، فانتزعك منى .

ووفقاً للعقلية العسكرية ، فإن الخطر الأنثوى المهدِّد، يلزمه أن تظل المرأة دوماً بين شِقَّىْ رحى ، تطالب ببعض الحقوق ! كما تفعل المتنوِّرات وزعيمات الحركة النسائية منذ مائة عام ، فيمنحها الرجل شيئاً .. ويسلب منها أشياء ! فتعود المرأة لتطالب بالمسلوب ، فيمنحها ثانيةً شيئاً ، ويسلب منها مزيداً من الأشياء . بالقانون ! الذى هو ذكورىٌّ الروح وذكورىٌّ التطبيق . وذكورىٌّ هنا تعنى (نصف إنسانى) وإن شئتِ الدقة قلتِ : ناقص الإنسانية !

على ذكر القانون ، كان جَدُّك يفتخر بأن أحد أبناء عمومته الروَّاد ، هو الذى صاغ هذه المادة العجيبة ، الفاضحة ، فى قانون الجنايات المعمول به فى بلادك . كانت الصياغة الأولى بليغةً وسافلة ، تقول : **إذا دخل الرجلُ على المرأة ، فوجدها يُزنى بها ، فقتلها هى ومَنْ يزنى بها ، يُحبس !** ثم تعدَّلت إلى صيغة أقل بلاغةً وأكثر غرابة ، ليصير نص المادة 237 / عقوبات، فى القانون المعمول به حالياً فى بلادك ، كالتالى : **مَنْ فاجأ زوجته حال تلبُّسها بالزنا ، وقتلها فى الحال هى ومَنْ يزنى بها ، يعاقب**

بالحبس المخفَّف !

فى بداية زواجى بأبيك ، سمعتُ جَدَّك يتفاخر فى جلسةٍ مسائية ، بابن عمه (القانونى) الرائد هذا . فسألته أول الأمر **مستفسرةً** عن معنى (الحبس) الوارد فى النص القانونى ، فقال إنه غير (السجن) وغير (الأشغال الشاقة) وإنه عقوبة تحتمل إيقاف التنفيذ ! .. فسألته ثانيةً **مستغربةً** عما إذا كانت هناك مادة فى هذا (القانون) تنصُّ على مثل هذه العقوبة ، لو كانت الزوجة هى المفاجئة لزوجها ، فقتلته هو ومَنْ يزنى بهـــا ؟ فقال ما معناه إن القانون يخلو من ذلك ، وبالتالى فإن عقوبتها الإعدام ! .. فسألته **مستنكرةً** عن سبب هذه التفرقة ، مع أن الخيانة والغيرة والثورة والقتل ، أمرٌ يشترك فيه الرجلُ والمرأةُ ، فلماذا يُعاقب هو بشدِّ أذنيه وتعاقب هى بالإعدام ؟ فاحتجَّ بأن الرجل غير المرأة ! .. فسألته **مستفهمةً** عن معنى (الغير) هنا ؟ فقال إن الرجل مكرَّم ، لأن الله خلقه على صورته ، وفضَّله ، كما ورد الخبر . فقلت **مستهزئةً** بما يقوله : **ياخَبَرْ !** فقال زاعقاً ، إننى ناقصة أدب .

نظرتُ إليه ساعتها نظرةً تقول إنه ناقص عقل وتهذيب وتحضُّر ، والتقطت شنطة يدى من فورى وأسرعتُ خارجةً من بيته .. بيته الذى لم أدخله بعدها أبداً .. بيته الذى دارتِ الأيامُ ، وتربَّيتِ أنتِ فيه !

رســـالة

صباحُ الخير يا ابنتى ، صباحُ الخير الذى يفيض على العالم منا ، ومن العالم علينا .. عند الكتابة إليك ، أشعرُ أن كل ينابيعى تفيض ، وأن ما اختزنته لكِ طيلة السنين الماضية ، جاء أوانُ سطوع شمسهِ الفيَّاضة .

كنت أخشى أن أموت ، قبل بلوغك وعى الثلاثين من عمرك ، واتصالى بك . والآن تبدَّدت خشيتى بفرحتى بك ، وبإحساسى الجارف (بل يقينى) أننى سأراك قريباً . هل كان علينا أن ننتظر كل هذه السنين ؟ كان هذا الوعد المشئوم الذى قطعته على نفسى أمام جدك ، قاطعاً لأوصالى .. ومع هذا ، التزمت به فلم اتصل بك لثلاث وعشرين سنة . زمن طويل . غير أننى رأيتك مرات ، دون أن تدرى

أنت ! كنت آتى لبلادك ، دون أن يعرف أحد ، فأتحيَّن الفرص لرؤياك : خارجةً من بيت جَدِّك للمدرسة ، جالسةً فى حديقة النادى .. تمرِّين على الفاترينات فى السوق الكبير ، تضحكين ملء الفم والروح مع صاحباتك ، تختلسين النظر لشاب وسيم . رأيتك عشرات المرات من خلف حجاب الوعد الذى قطعته ، وقطعنى . رأيتك تكبرين كما تكبر النساء فى بلادك ، على الدرب ذاته الذى رُسم لهنَّ ، ولك. الدرب الجامع بين الاحتياج الملحِّ للمرأة ، والإصرار على إقصائها واحتقارها .. الاحتقار ، كان موضوع أول دراسة متخصِّصة نشرتها بعدما هجرت بلادك ، كان عنوانها : تأملات فى البنية الاحتقارية السائدة .

كنتُ حينذاك ، مدفوعةً بآلام تجربتى ، حريصةً على **فهم** ما جرى معى ، وما يجرى مع النساء بعامة . و لم يكن ذلك الفهم ممكناً ، دون تحليل طويل لطبيعة التاريخ الممتد لهذه الجماعة التى ننتمى إليها ، أو بالأدق : كنتُ انتمى إليها فى زمانى الأول، قبل ارتقاء وعيى بما يسمح بالانتماء للإنسانية ! وقد انتهيت من تحليلاتى ، إلى الآتى :

بعدما استقرت أمور هذه المنطقة القديمة من قلب العالم ، فى أيدى الرجال . وبعدما أعاد الذكور صياغة العقائد الأسطورية القديمة ، تمهيداً لصياغة المفاهيم الدينية التالية عليها ، ومن ثم صياغة القوانين والنظم ، بحيث تُعلى هذه (الأسس) من قَدْرِ الرجل شيئاً فشيئاً ، وتحطُّ فى المقابل من شأن المرأة .. توارت النساءُ فى الجحور ، ومُدحن بأنهن (ربات الخدور) والخِدْرُ كما تعلمين يا ابنتى ، هو الخيمة والخباء وموضع الاختباء .. ولزمن طويل ، كانت المرأة تُمتدح بأنها مختبئة ، وبأنها خجولٌ وذاتُ حياء ، وبأنها مصونةٌ عن أعين الرجال !

ومن بعد انقضاء زمن النبوة ، امتدَّ التاريخُ السياسى والاجتماعى للمسلمين ، مشوباً دوماً بشعورٍ جماعىٍّ سلبىٍّ تجاه مَنْ يحكمون ، وانتقاصٍ مسكوتٍ عنه فى أغلب الأحوال ، لايرى فى الحكام أهليةً كافية لاستحقاق الحكم . حتى فى زمن الخلفاء الراشدين ، اختلف الناسُ فى أهليةِ كُلٍّ منهم ، وفى استحقاقه الخلافة .. فمن اجتماع السقيفة حيث نوقش أمر خلافة النبى ، إلى وقائع قتل عثمان بن عفان ، إلى حروب عائشة وعلىّ بن أبى طالب ، إلى حرب الأخير مع معاوية .. مضى الأمــــر ، لينتهى باستقرار الخلافة الإسلامية مُلكاً عضوضاً بيد **معاوية بن هند** معاوية أبى **يزيد** الفاجر الذى قتل الحسين ، معاوية الذى لامه واحدٌ من أقاربه على تنكيله وتقتيله آل بيت النبوة ، فرد عليه بقوله : يا ابن عَمِّ هى الدنيا ، فإما أن تأكل معنا أو تتركنا !

وامتدَّ أمرُ **السلطة** على النحو المعروف من تداول الدول ، بالخلع والنـــزع والفجائع . وخلال القرون ، الطوال ، يندر أن نجد حاكماً واحداً ارتقى إلى تولّى الأمر باختيارٍ جماعى ، أو عن استحقاقٍ حقيقى ! وإنما كانت معالم الطريق إلى العروش ، هى الجيوشُ والمنازعة والانتزاع والانقلاب أو المؤامرة والمكيدة والقتل غيلةً (غدراً) وصارت الجيوشُ حاميةً للعروش ، حتى جاء واحدٌ من الفجرة، فصاغ الأمر فى عبارةٍ واحدة ، جامعة لأمر السلطة كله ، قال : ***الحكم لمن غلب*** . ليصير هذا المبدأ من يومها ، هو العاملُ **الضابطُ** لأمر السلطة .. فمن يغلب ، يحكم !

ورسالتى هذه ، يا ابنتى ، تضيقُ عن ذكر تفاصيل قيام الدول وسقوطها ، بعضها على أنقاض بعض (ربما نتحدث فى ذلك ، حين نلتقى) والمهم الذى يعنينى الآن ، هنا ، هو بيان أن غالبية الحكام ، وربما كلهم ، كان الواحد منهم يعانى دوماً من شعوره الضاغط الطاغى على نفسه ، بأنه تولّى الأمر عن غير استحقاقٍ فعلىٍّ . ومع طول ضغط هذا الشعور وطغيانه فى نفس الحاكم ، يتولَّد عنده الإحساسُ باحتقار الذات . فإذا خلا هذا الحاكم أو ذاك ، بنفسه ، وغاص عميقاً داخل ذاته .. فما ثَمَّ إلا أمران يؤرِّقانه : كيف يحافظ على عرشه من الطامعين فيه ، وكيف يتخفَّف من طغيان شعوره باحتقار الذات .. شعوره غير المعلن بالطبع .

وكان سبيلُ الحكام لدفع الأمرين المؤرِّقين ، غالباً ، كالتالى : قطعُ الطريق على الطامعين فى العرش ، بقطع دابرهم! والتخفُّفُ من احتقار الذات ، بتقريب الكبراء الحقراء .. فكلما احتقر الحاكمُ كبارَ حاشيته المقرَّبين ، وكلما بالغوا فى تبجيله وإعلائه بمداهنتهم إياه ، خَفَّ عنده ذلك الإحساس باحتقاره لذاته . وبالطبع ، فحاشيةُ الكبراء الحقراء المقربين ، سوف يتنافسون فيما بينهم ، لإبراز تصاغرهم أمام الحاكم ، والمبالغة فى التغنِّى بمميزاته . فيضمنو بذلك بقاءهم ، ورضاه .. ولذا نظرتِ مثلاً فى تاريخ الشعر العربى ، ستجدين أن أكثر من نصفه ، إنما قيل فى مدح حكامٍ و ولاةِ أمور .

غير أن الحاشية ، حاشية الكبراء الحقراء ، يتولَّد فى نفوسهم شيئاً فشيئاً ، شئٌ وأشياءٌ داعية لاحتقار الواحد منهم لذاته . ودون أن يدرى ، يعيد الكرّة مع مَنْ تحت سلطانه هو . فيكون حوله ، بدوره ، مقرَّبون يلعبون معه ، الدور نفسه الذى يلعبه هو مع الحاكم الأعلى . وعلى هذا النحو ، تستمر لعبة الخلاص من احتقار الذات ، باحتقار الواحد لمن هم دونه ، وتبجيل هؤلاء الأدنياء (أدنياء . من الدنو ، ومن الدناءة) حتى تلفَّ **البنية الاحتقارية** المجتمع كله .

والمجتمع يا ابنتى نصفان ، رجال ونساء . والرجال بحكم الواقع المفروض والتاريخ المصنوع ، هم

الأعلى . فعلى الأدنى (النساء) أن يقمن بالدور المقدَّر عليهن بحكم انتماء المجتمع للبنية الاحتقارية ! فيكون على المرأة أن تبجِّل الرجل : أبـــاً ، وأخاً ، وزوجاً .. وتبجيل الزوج ، بطبيعة الأمر ، مردوده أوقع . فالرجل عليه احتقار المرأة ليخفِّف بذلك من شعوره باحتقار الذات، واحتقار مَنْ هم فوقه ، له . والمرأة عليها أن تعطيه بكل إخلاص ، الطاعة والاحترام والتبجيل .. ولا بأس ، لو اندعم الأمر ببعضٍ من عاداتٍ شائعة وتقاليد موروثة ونصوص دينية لها طابع الإلزام والقسر . رووا فى الحديث الشريف : إذا صامت المرأة وصَلَّت وأطاعت زوجها ، دخلت الجنة ! فانظرى كيف تعادلت هذه الطاعة للزوج ، مع معظم أركان الدين . وتأمَّلى كيف خلا الحديث الشريف من أى وصف للزوج ، بحيث يبرِّر طاعته ، كأن يكون طيباً أو صالحاً أو غير ذلك من المبررات . فيصير جماعُ الأمر : أن مطلق المرأة ، عليها طاعة مطلق الرجل والخضوع له .. بلا تمييز .

لا أعرف يا ابنتى ، ما الذى جَرَّنى للكلام عن تلك الأمور، التى استقرت بفعل الأزمان والدهور الطوال . فاعذرينى إن أزعجك كلامى ، فهو يزعجنى أيضاً ! وفى ذهنى الآن مئات الشواهد الدالة على ما أقول ، والأمور المؤكِّدة له .. ومن ثم ، فذهنى الآن مكدود ! والأفضل أن أنهى الرسالة ، إشفاقاً عليك وعلى نفسى .. نفسى التى امتلأت من هذا العالم ، وأُترعت ، وفاضت بما فيها .

آه يا ابنتى .. قلبى يحدثنى باقتراب لقائنا ، فيتأجَّجُ اشتياقى ويجرفنى إليك .. فما بال اشتياقُك ساكنٌ !

ظهر الغلاف

تحكى هذه (الرواية) تحولات صورة **الأنثى** فى ثقافتنا . فهى تروى سيرورة الصورة ، وصيرورتها من أفق الأنثى المقدسة إلى دهاليز النسوة المدنسات . والرواية لاتقصد إلى الحطِّ والتهوين من شأن تلك الثقافات المتعاقبة المسماة ، زوراً وبهتاناً بالسامية . بل تعرض للأنثى السامِيَة ، من حيث دنستها السامِيَّة .

وقد يكون من المناسب لبعضهم ، أن يرى بين دفتىْ هذا الكتاب (حكاية) جرت بين الشخصيات . وقد يكون من الأنسب لبعضهم ، أن يرى فى شخصيات الرواية تجليات لحكاية واحدة ترويها ، أو تهيمن بها على أهلها، ثقافةُ هذا الجزء من العالم .. الجزء القديم (الباقى) بكل تشابكاته وامتداداته ، مستعصياً على إغواء الفناء ، ومُستبسلاً ضد محاولات الإفناء .

(1) الإشارة هنا ، إلى تدمير **إنانا** لجبل **الأيبيخ** الهائل ، لأنها مَرَّت أمامه فلم يظهر لها احترامه ، كما ينبغى !

(*) نص قانون **أوروكاجينا** وفقاً للرقيم المسمارى الذى عُثر عليه فى خرائب سومر (جنوب العراق) يقول : **النساء قديماً ، كانت الواحدة تتزوج رجلين . النساء الآن ، مَنْ تفعل ذلك تُرجم بالحجارة** .. (لا حظى يا ابنتى ، أنه لاعقوبة تقع على الزوج الثانى ، ولا الأول !)